موقف المستشرق "تيودور نولدكه"*

نجد في دراسته عن تاريخ ونقد الشعر العربي القديم [١] أنه يفترض أن كل الشعر العربي نشأ عن شعر الرجز الابسط شكلاً... ويبدو من الطريقة التي يتحدث بها امرؤ القيس انه يحاكي من سبق هـ وأن بدء القصائد بالبكاء على الأطلال كانت في زمانه جديدة نسبياً وأن شكل القصيدة في عصر امرئ القيس لم يكن قديماً جداً، وان الأشكال المنقولة قد أدت أحياناً عند الشعراء القدماء إلى صنعة Manier تثير الشك والاتهام بأنها لم تعد حية وأنها نشأت قبل ذلك بزمن طويل، وأنه لا يوجد بيت شعري وثيق النص يمكن أن يرجع إلى ما قبل سنة ٥٠٠ ميلادية.

ان نقطة التحول في الشعر تتجلى في كل الحياة الروحية للعرب في انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين وان آخر ممثل جدير بالتنويه للاتجاه الشعري القديم هو الشاعر ذو الرمة، تأسياً برأي علماء اللغة العرب.

ويرى أن- الفترة كما يذكر- التي يمكن تأملها بوضوح تشمل على أقل قليلاً من قرنين بحيث يمكن أن يقسم ما تبقى من أدب إلى نصفين، الاول يندرج معه عصر صدر الاسلام، والنصف الثاني يناظر أسماء عظماء الش عراء، امرئ القيس والنابغة والاعشى وغيرهم، أبطال النصف الأول المتمثل بالشعراء جرير و الاخطل والفرزدق وذي الرمة وعمر بن ابي ربيعة "الذي ربما كان أهمهم جميعاً بيد أنهْ يكشف عن تأثير قوي للانتقال إلى طريقة الشعر الحديثة، فضلاً عن انه نموذج صحيح للاستقراطية القرشية" وغيرهم من الشعراء.

---

* ينظر: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: ١٧-٤٠.

(1) Beiträge Zur Kenntniss der posie der alten. Araber, van Theodor Nöldeke. Hannover, 1861, S. I. XXIV.

وينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٤٠.

ويرى "نولدكه" انه من الصعوبة التوجه في ميدان بداية الشعر العربي القديم، اذ كل شيء فيه غريب، ألفاظه مفرداته ترتيب القصائد، وتكرر الافكار لدى الشعراء جميعاً . لذا من الصعب ادراك أدق الفروق ف ي الاستعمال اللغوي القديم فالقصائد يفهمها أفضل العارفين في اللغة وعلومها – كما يدعي – وان الامر يحتاج إلى زمان اطول لفهم ذلك الشعر . وأن القصائد كانت ستفهم فهماً كاملاً لو أنها جاءت كاملة وفي وحدة نصها، وان ما جاء من شذ رات ذلك الشعر تختلف اختلافاً شديداً عن صورتها الاصلية، وانه من المستحيل ان يبقى أدب تتوارثه الأجيال مهما كانت قوة الذاكرة لديهم من دون ان يحدث فيه تغيير حتى يصل إلى زمان كتابته آخ ر المطاف، فكيف والحال اذا كان ذلك كله وصل عن طريق الرواية الشفوية من شفاه الرواة، وان الحرص على تثبيت الروايات وعدم التغيير لم يظهر الا في العصر العباسي، لان من سبقهم من العلماء لم يكونوا مهتمين الا بمساعدة الباذلين للعطاء وانهم سلكوا مسلكاً يتسم بالاستهتار وعدم المسؤولية.

وبسبب الثروة اللغوية الهائلة فكثيراً ما يحدث أن استبدلت كلمات اوعبارات بكلمات أُخَر اما عن قصد تيسير الفهم وغير قصد، يدعم رأيه عن ذي الرمة وشكواه من الناس الذين أفسدوا رواية قصائده.

ويرى "نولدكه" أنّ تخلخل تركيب القصائد ساعد على سقوط بعض الابيات أو التغيير في ترتيبها ، فضلا عن وجود مدرستين – الكوفية والبصرية – لهما روايتان مختلفتان للنص الشعري، وان عمل الرواة ساعد على فصل الاجزاء المنفردة والاجزاء قبل ا لمواضع الغزلية المتشابهة جداً ، فانها كانت تهمل، ويضيف إلى ذلك ذوق جمّ اعي المختارات الشعرية ساعد عل ى تقطيع القصائد القديمة . وانه ليس من الصعوبة ان نضم أجزاء قصائد إلى اجزاء قصائد أُخَر اذا اشتركت في الوزن والقافية

كالذي حدث في معلقة امرئ القيس بنسبة بعض أبياتها إلى تأبط شراً في صورة كلامه مع الذنب[١].

بيد أنّ الشعر العربي وهو المُ لك المشتوك لشعب واسع الا نتشار قد تعرض لأخطار من نوع خاص ، بسبب ما أصاب اللغة من التغيير بعد انتشار الدين الاسلامي ، والاختلاف بين الشمال والجنوب ولأتساع البلاد الاسلامية، أظهر أ نّ كثيراً مما ورد في القصائد مخالف لقواعد اللغة . ويضيف إلى ذلك التغ يرات لاعتبارات دينية، وان هناك من الشعراء المتاخرين ممن وضعوا لهم قصائد على لسان شعراء جا هليين لينالوا القبول والحظوة، وأ نّ قصائد كاملة أُ نتحلت من اجل الوعظ أو المحاضرة أو الفخر أو الهجاء، فضلا عما اراده بعض الرواة من انعاش أخباره التاريخية بنسبة أبيات إلى من يذكرهم في أخباره أو إقحام أشعاره م التي ينظمونها مع القصائد الصحيحة ويروونها على أنها من عمل شاعر قديم.

وأمام كل محاولات التغيير التي تعرض لها الشعر لايمكن ان تصحح القصائد من ذلك الكم الهائل من الشعر وتنسب للشاعر المعين وهناك اكثر من ر اوٍ واكثر من رواية لقصيدة واحدة لشاعر معين ، فكيف بديوا نه ثم بدواوين الشعراء جميعاً، فضلا عن اختلاط الروايات في كتب النّ ساخ ومخطوط اتهم واختيار النص المحدد من بين النصوص الكثيرة فخلطوا بين ما يحفظونه وبين ما هو موجود أمامهم من شعر.

وأمر أخير يشير إليه "نولدكه" أمر تعليق القصائد أو خرافة المعلقات السبع المعلقة على جدار الكعبة، وهو امر بعيد كل البعد عن الحدوث أو العقلانية اذا كانت هناك قصائد قد علقت فعلاً وانها اختيرت من بين قصائد كثيرة قالها الشعراء

---

[١] ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني: ٣٧ (في الهامش).

في سوق عكاظ ايام الجاهلية، وجرى التحكيم عليها لتكون هي الافضل ما قالته العرب.

موقف المستشرق "الفرت"*

يقدم في كتابه "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة"[1] وفي الفصل الأول منه آراءه بهذا ا لشأن وتكاد تكون مطابقة لآراء "نولدكه" فيما يراه في نسبة الشعر وتنازع النص بين أكثر من شاعر واحد ، وأن الشعر لم يرد مكتوباً لعدم المعرفة بالكتابة، فجاء الشعر أو حفظت نصوصه عن طريق الرواية الشفوية وأن البعد الزماني بين شعراء العصر الجاهلي والزمن الذي جمعت فيه أشعارهم يستحيل معه أن ترد النصوص كاملة أو من دون أن يحدث فيها أ ي حذف أو إضافة أو تبديل في الألفاظ والعبارات وأية تزييفات يحدثها الرواة بصورة مقصودة أو غير مقصودة، حتى ان من ذلك الشعر – أي القديم – ما نسب في العصر العباسي إلى أبي نؤاس، فضلاً عن تخلخل ترتيب القصائد سواء في مطالعها أو في الأبيات وأشطارها وأعجازها.

ان عملية جمع الشعر بدأت مع تفسير القرآن الكريم والحاجة إلى فهم ما جاء فيه من عبارات وألفاظ ومعان نحوية أو لغوية – لاسيما توحُّد لغة العرب بلغة قريش وان القرآن قد نزل بلغة قريش – مع وجود مدرستين لرواية الشعر "الكوفية والبصرية"، وسرعان ما ازدهرت هاتان المدرستان وظلتا لوقت طويل ميدانين متنافسين في علوم اللغة وكانتا على اتصال بالعناصر الأجنبية وكان الشعر هو المادة الأساس لعلوم هاتين المدرستين، والذي يأخذونه من شفاه الرواة اذ لم يوجد أدب منثور، لذا فالوسيلة الوحيدة لديهم في الاستشهاد والتدليل عن طريق الرواة فقط . ولكن لا يمكن القول

* ينظر : دراسات المستشرقين في صحة الشعر الجاهلي :٤١-٨٦.

(1) H. Ahlward, Bemerkungen über der Aechtheit der alten arabischen Gedichte, 1872 Neudruck, Biblio verlag. Osnabrück, 1972, pp. 1-34.

بصحة سلامة الثروة اللغوية وأنها قد حفظت من اي تأثير أجنبي ، إذ وردت في الشعر الكثير من الألفاظ الأجنبية التي اتخذت شكلاً عربياً، وما كان للغة العربية ان تبقى بمنأى عن التأثيرات الأجنبية، وكان يقيم بين العرب عدد غير قليل من الأجانب، بل أنهم سيطروا زماناً طويلاً على بلاد العرب.

ويؤكد "الفرت "على الرواية المأخوذة من شفاه الرواة وطريقة تعاملهم مع الاشعار، ويطيل الحد يث عن عمل هؤلاء الرواة ، وتنازع رواياتهم بين الحقيقة والكذب، وبين الصحيح والزائف بسبب عدم حرص هؤلاء الرواة في دقة ما يروونه، فكيف إذا كان الانتقال من جيل إلى جيل وعلى تلك الطريقة فـي انتقال الروايات وانتقال الشعر . وأنّ ما انتقل من الشعر بالرواية ال شفوية هو ا لاشعار ا لقصيرة المتعلقة بالوقائع التاريخية ومعظمها أشعار مرتجلة، ومع الزمن تعرضت للتزييف والخلط في الترتيب. ومع ذلك فظلَّ هؤلاء الرّواة هم الينبوع الرئيس الذي استقى منه جمّاعو الشعر ومنهم حمّاد الراوية وخلف الأحمر، مادتهم الشعرية والتي يستمدون منها معاني اللغة والنحو سواء في تفسير القرآن وبيان معانيه أم في فهم اللغة العربية ونحوها ووضع قواعدها. لكنّ الأمر لا يعني بعدم وجود الفوارق في الروايات، إلا أن اللغويين النحويين كان لهم دور – أيضاً– في تعديل أشعار الشعراء غير القريشيين لان لغة العرب توحدت بلغة قريش وكانوا ينظرون إلى اختلاف الروايات أو اللهجات التي تروى بها الأشعار على حسب طريقة القبيلة التي ينتمي إليها الشاعر المعين الذي تروى أشعاره سواء حقيقةً كان ذلك الشاعر ام كذباً ، وأن أمر الكتابة لم يتوثق لترد الأشعار صحيحة كما هي، لذا أخذ وا الشعر من جميع البلاد وضمّوها بحزمة لغوية واحدة ، وغدا أمر التعارض في المعاني من قبيلة إلى أخرى، وأصبح الأمر صعباً للوقوف على حقيقة المعاني ، وان لغة الكتابة كانت لها حدودها لا من حيث معاني الألفاظ بل من حيث اشكالها، لان اشكالها بقيت ثابتة، وأُخذت عن الظواهر

اللغوية في لهجة قريش، واما ما يتجاوزها فيعد تعبيراً عامياً لا ينبغي استعماله في الكتابة. وبهذا الصدد يذكر "الفرت" ما منقول عن حمّاد الراوية من احتكام الشعراء في قصائدهم إلى القرشيين، فأما ان تُقبل أو ترد، ويرى أن ذلك مردود اذ لم يكن في قريش شاعر مشهور له مكانته الأدبية والفنية ليكون لقريش مثل هكذا زعامة أدبية، ولكن المقصود من الخبر أن لهجة قريش هي المعيار للجميع من حيث اللغة.

لقد كانت هناك حاجة لغوية دعت إلى استخدام أشعار الشعراء القدماء والأمثال شواهد نحوية أو لغوية، ولكن أنّى لهؤلاء العلماء واللغويين الحصول على ذلك كله وهم يقيمون خارج الجزيرة وبعيدون عنها كل البعد، وكان عليهم ان يكتسبوا بالتعلم اللغة العربية الفصيحة اما بإقامة العرب الخلص لمدة تطول أو تقصر بين هؤلاء اللغويين، أو عليهم الذهاب إلى مناطق الاستعمال الصحيح للغة كما يتحقق ذلك عند القبائل العربية الصريحة النسب.

وفي ضوء الحاجة اللغوية إلى الشواهد الشعرية كانت النزعة إلى حفظ تلك الشواهد ابتغاء إلقاء الضوء الساطع على المعنى، مما هيأ إلى نشأة مجاميع الأشعار المفردة والخاصة من مثل كتاب المعاني أو كتاب النوادر . ولم يكن الدافع في ذلك حب الشعر أو الاهتمام بالجمال، بل كانت قيمة الشاعر واختيار العبارات من شعره وأفكاره، والشعر بهذا اللون كان يكفي لوصف صاحبه بأنه أكبر الشعراء وما إلى ذلك. أما الحكم على القصيدة بوصفها كلاً فلم يكن له شيء من الصحة أو الوجود، وانى للروح العربية ان تفعل ذلك- في بداية تكوين الآداب- وهي المشغولة في كلّ الميادين بالجزئيات والتفاصيل. وأنه لم يكن بذي أهمية معرفة قائل الشعر أو ظروف نظمه، وإنما هذه المسألة أثيرت في نهاية القرن الأول الهجري- على الوجه الصحيح- بعد عمليات جمع الشعر من البادية من قبيلة إلى أخرى. عند ذلك كانت الحاجة إلى معرفة تاريخ الأدب، لاسيما بعد انقضاء أربعة أجيال إلى ستة منذ ان

سكت لسان شعراء الجاهلية بعد مجيء الإسلام، ومن ثم ظلت الأشعار تنتقل عبر أفواه الرواة مع بعد الزمن. بمعنى أن التحريف والتزييف كان أمراً محتماً أنْ يُصيب الشعر، فضلاً عن تغيير ترتيب الأبيات وحذف ما يمكن حذفه بقصد أو بغيره، أو نسيان اسم الشاعر أو اختلاطه باسم آخر لاسيما ما يحدث في قصائد الهجاء القصيرة التي كانت تطير بلا أجنحة والحادي يحدو بها ابلة لتسرع في سيرها، وتدعو جماعة الفرسان لتستمتع في مرازل الراحة من عناء الشعر.

إنّ رواية الشعر وحفظه تتطلب ذاكرة واعية وغير عادية لح فظه والإحساس بأسلوب الشعر، لذا كان الرواة من الشعراء المبدعين وكان لكلّ شاعر ر أو يحلّ معه حيثما يحل وليس بمقدور الإنسان العادي أنْ يحفظ الشعر يرويه ما لم يكن قادراً على ذلك ومستعداً للقيام به، وان عدد هؤلاء ليس بالقليل وما حفظوه من الشعر ليس بالقليل أيضاً، ولولا روايتهم الشفوية لضاع ذلك الشعر اذ لم تكن قد عُرفت الكتابة بعد. ولكنّ هؤلاء الرواة قد تعرضوا إلى نقص أعدادهم بسبب العصر الإسلامي الجديد والاشتراك في الحروب والجهاد، أو لانشغالهم بشؤون الحياة اليومية الجديدة وضاع من الذاكرة ما حفظ من الشعر الكثير حتى إذا ما جاء منتصف القرن الثاني للهجرة أصبح الشعر اقل القليل وضاعت القصائد بضياع الرواة، ولكن نشط علماء اللغة والأدب بشكل حماسي لإنقاذ البقايا الثمينة من العصر الجاهلي وجمعها وتقييدها وكتابتها في الكتب كالذي ف عله الأصمعي أو المفضل الضبّي وأصحاب الحماسات والمجاميع الشعرية.

ومن أشهر الرواة الوضّاعين حمّ اد الراوية، وكان معاصراً لعمرو بن العلاء الذي استفاضت شهرته بعلم اللغة ومعرفة الشعراء، لكن حماداً لم يقلّ عنه شأواً، ويعترف بعدم علمه بالجزئيات اللغوية، فقد تفوق على معاصريه بحفظ الأشعار وذاع

صيته بين الناس وينسب إليه انه هو الذي جمع القصائد السبع الطوال، وبالجملة إنّه هو الذي جمع القصائد القديمة وما يتعلق بها من أخبار[١].

فضلاً عما ذُكر أنه يمزج شعره بشعر آخرين وينسبه إليهم على أنه من عملهم[٢]. ولكن لا يُصدق انه قد حفظ ثلاثة آلاف قصيدة من الشعر الجاهلي، وانه كا ن يستطيع ان ينشد سبعمائة قصيدة تبدأ بـ (بانت سعاد)، ولأنه غير موثوق برواياته كان لا يرد الجواب عن أي سؤال يوجه إليه بشأن أي قصيدة، أو أي شاعر– على حد رأي علماء اللغة البصريين –، فضلا عما ذكره الأصفهاني[٣] عنه يمزج شعره بقصائد الشعراء وينسبها على انه من عملهم.

ويذكر "الفرت" بصدد قِدم الشعر وأصالته: "وأنا واثق تماما أنّه كلّما كان الشعر أقدم وأكثر أصالة، كان أوجز و أقصر. وأعتقد تماماً في صحة الرواية التي تقول إن القصائد القديمة كانت منحصرة في ٧– ١٠ أبيات، اما القصائد الطويلة التي تنسب إلى العصر الذي فيه قال ام رؤ القيس والنابغة شعرهما، فلا يمكن ان تكون في ذلك الزمان المبكر جداً من نتاج اللحظة، كذلك لا يمكن ان نرى فيها نتاجاً للصنعة[٤] و"عليه فهو يرى ان القصائد الطويلة المرتجلة كانت في عصر متأخر جداً، وعلى سبيل الاستثناء النادر جداً وقد تكون اعدت من قبل، وكان ذلك في عصر تحددت اللغة في استخدامها الشعري و ترسخت فيه صناعة الشعر، "اما في الزمان القديم فان استخدام الوزن حتى لو كان سهلا بالنسبة إلى الاذن المدربة، فانه فرض على القول نوعاً من القسر، وكذلك فعلت القافية، وهي يجب ان تظل واحدة لا تتغير بل ان شعراء عباقرة ينسبو ن إلى عصر متأخر وكان لديهم نماذج عديدة

---

[١] ينظر: المزهر السيوطي: ٨٧/١.

[٢] ينظر: الأغاني: ٣٢٨/١.

[٣] ينظر: الأغاني: ٣٢٨/١.

[٤] دراسات المستشرقين...: ٦٤.

للشعر، وشُهر عنهم انهم يمتلكون ناصية اللغة، كان عليهم مع ذلك في أحيان غير نادرة ان يقضوا الأيام والليالي – بل الشهور – بحثاً عن قافية لبيت واحد في قصيدة"[١]، وذلك ما عرف عن زهير في إنشاء قصائده "الحوليات" والتي تعني انه ا ليست مرتجلة وانه كان ينظمها ببطء ، والأمر نفسه مع آوس بن حجر والطفيل الغنوي اللذين كان زهير راوياً لهما ، لذا فان الأفكار التي يراد التعبير عنها في مناسبة معينة لم تكن تتدفق على الشاعر الجاهلي على نحو وآخر يسمح له ان يرسل مقداراً من الشعر في خلق متواصل يتم في اللحظة المعينة.

وأمّا ترابط اجزاء القصيدة الواحدة وانتقال الشاعر من مقطع إلى مقطع آخر بصورة متصلة توحي بوجود العلاقة ومراعاة الشاعر حسن الانتقال بين موضوعاته، فهذا الأمر لم يتحقق الا في العصر المتأخر عند الشعراء المجيدين على نحو كاف دائماً لكنه لم يتم في العصر المتقدم إطلاقاً، فالشاعر الجاهلي وان كان خطا الخطوة الأولى في الصنعة الشعرية فانه لم يكن بارعاً بدرجة كافية للقيام بهذا الانتقال المتقن على نحو سليم، لذا فالقصيدة إذا لم يكن فيها ارتباط باطن يربط الأجزاء بعضها ببعض، فانها تتفكك إلى أجزاء مختلفة، و هو نقص قد تلافته الص نعة الشعرية المتطورة[٢] في الزمن بعد ذلك "وهنا يكمن الخطر في توهم أن القصيدة كل كبير متماسك"[٣].

وهذا الأمر كثيراً ما يحدث عند تداخل الوزن والقافية بين قصائد الشعراء، ومن ثم يصبح الفرز عند ضم تلك القصائد أمراً صعباً وهو ما يقوم به الروا ة في احداثاتهم تلك التداخلات بين قصيدة وأخرى. وإلاّ كيف ترد أسماء لنساء كثيرات في قصيدة واحدة أو في مقطع واحد كما في النس يب في معلقة امرئ القيس . أو ذكر

---

[١] دراسات المستشرقين...: ٦٥.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين...: ٦٦.

[٣] دراسات المستشرقين....: ٦٦.

عدة أماكن قد يكون احدها بعيداً عن الآخر ، فكيف تهيّأ للشاعر ان يجمع تلك الأماكن في مقطع واحد الأمر الذي يحتاج إلى معرفة تامة بجغرافية تلك الأماكن حقيقةً على الأرض.

والشعر القديم ليس من النوع الغنائي- كما يدعي "الفرت"- بل هو وصفي، وإلا كيف تتسلسل الأوصاف بالطريقة التي يوردها الشاعر أو يتبعها في قصيدته من دون ان تتناقض فيما بينها. ولكن الشاعر يقوم بوثبات في قصيدته التي ينظمها في ٦٠- ١٠٠ بيت فهو يتتبع ما كان فاته من وصف ليعيد ذكره بعد مضي عدد من الأبيات، ولا يعدّ ذلك خطأ منه . وذلك يتطلب الاطلاع الواسع والحس المرهف والاستعمال الدقيق لممارسات هكذا حالات شعرية من اجل الوصول إلى تحديد دقيق.

لكن ذلك لن يحقق إلاّ نتيجة سلبية. فهل تحقق علماء اللغة في القرن الثاني الهجري من صحة ما ورد إليهم من ذلك الشعر وهل كانوا على علم دقيق بذلك الشعر وأسلوبه وترتيب مقاطع القصائد، أم أنّ الأمر كان منصباً على الوزن والقافية التي تنتظم القصيدة بهما.

ففي قصائد النسيب يتبادل الشاعر موضوعاً يعبّر عن أمور ذاتية أو عن علاقة مع محبوبة ما، وهذا العرف صار صفة شعرية وإنْ تغيّرت بعض الشيء مع مرور الزمن . وطيف الخيال- أي زيارة المحبوبة لشاعر- صار في وقت متأخر مألوفاً ومؤثراً، أمّا لدى الشعراء الجاهليين فكان ذلك نادراً جداً سواء كان للشاعر حبيبة أم لم تكن، فالأمر سواء، إذ يجب ان تكون لديه حبيبة يشكو ألم فراقها أو عدم أمانتها وإخلاصها، أو يبكي شبابه الضائع. ولم يشذ عن هذا المبدأ أو العرف إلا في أحوال نادرة ما يقرأ في لامية الشنفرى وهي قصيدة طويلة لا يليق بها أن تبدأ بشكوى الغرام.

ويعرض "الفرت" لتسمية "القصيدة" وعدد الأبيات التي يجب أنْ تكوّنها لتُسمى قصيدة أو أنّها تحمل موضوعاً أو لأنّها تقصد أمراً أراده الشاعر وقصد إليه. فيعرض لتسمية القصائد "المعلقات" وينفي خبر تعليقها في بيت الكعبة وعدم اتفاق هـ في المفهوم الذي قدمه "فون كريم ر". في مقدمة كتابه في القصائد العربية القديمة، وأنّ معنى التعليق لم يرد في المفهوم القديم إلاّ نادراً وبصعوبة. وإنما استعمل لفظ علق بمعنى النسخ والكتابة عن إملاء بلا انقطاع، ثم أنّ نسخ هذه القصائد أمر مشكوك فيه جداً، وقد أجمعت المصادر القديمة على ان حماد الراوية أول من جمعها وأذاعها وبيّن معانيها: "المذهّبات" أو "المسمّطات"، أو "الطول"، أو "السموط". وأنّ "المعلقة" من الصعوبة ان تدل على شيء آخر غير "المذهبة" وهي بمعنى المزودة بحلية ثمينة من الذهب وفي كلتا الحالتين فإنها قصيدة متفوقة ذات مزايا خاصة . فكيف تأتّى لهذه القصائد أن تُختار في سوق عكاظ على سواها من الشعر وهل كانت هناك لجنة تحكمية ، أو جوائز تمنح لشعرائها الذين مُيزوا من غيرهم من الشعراء، ولكن يمكن ان يكون هؤلاء الشعراء قد التقوا أو تبلروا بينهم لإظهار براعتهم الفنية في الشعر وتبادل الأحكام فيما بينهم بعضهم على البعض الآخر.

ويعترف "الفرت" بقصور الوسائل والإمكانات التي تعينهم على الفصل في أحكامهم وآرائهم بشأن الاستعمال اللغوي للمفردات والفروقات بين اللهجات العربية . ويذكر انه "من المؤكد أنّ علماء اللغة الأقدمين يتفوقون علينا في المعرفة التي من هذا النوع، لكنهم مع ذلك لم يولوا هذا الموضوع إلا قليلاً جداً من اهتمامهم. وفضلا عن ذلك فقد كانت غالبيتهم من الأعاجم ، وبهذا الوصف كان يعوزهم الإحساس اللغوي الدقيق، ويبدو لي من المشكوك فيه انهم أدركوا الفروق الدقيقة بين لغة العصر الجاهلي ولغة العصر الإسلامي... وهذا الإحساس اللغوي يعوزنا حقاً، ولا اعتقد اننا نستطيع مثلاً ان نميز بين لغة جرير ولغة الفرزدق، كذلك يعوزنا الكثير

من المعارف الخاصة التي كانت ميسورة لهم بسهولة، فهل وصفُ ناقة قد قام به أعرابي بدوي أن يكشف الوصف عن رجل حضري غير خبير، هذا الأمر لا نستطيع ان نقرره مباشرةً وهل المواضيع حشد بعضها داخل بعض دون ارتباط، أو هل تتوافق فيما بينها... هذا أمر من الصعب، وأحياناً من غير الممكن، الفصل فيه، هل كثير من التشبيهات حقيقة، أو تحمل آثار حضار ة لاحقة، هذا أمر من الصعب بيانه..."[١].

المستشرق "مرجليوث" ونظرية الشك في الشعر الجاهلي*

في مقالته "نشأة الشعر العربي"[٢] يتعرض لموقف القرآن من الشعر والشعراء ووصفهم بالغاوين ونفي الشعر عن لسان المصطفى محمد (ﷺ) ثم موقف أهل قريش من الدين الإسلامي وما جاء الرسول الكريم من سور القرآن المنزل وانكروا أن يكون وحياً بل وسموه بالشاعر والمجنون والكاهن.

فيعقب بالقول: "فان كان المقصود بالشعر نفي المعنى المفهوم منه في الأدب اللاحق على القرآن، فس نكون في مواجهة معضلة خفيفة : إن محمداً الذي لم يكن يعلم الشعر كان يدرك أن ما يوحى إليه لم يكن شعراً . بينما أهل مكة الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمعونه أو يرونه، ظنوا بأن هذ ا الوحي كان شعراً، وكان ينبغي أن يتوقع العكس . ولربما كان في وسعنا أن نستنتج أن الشاعر كان يُعرف عامةً بمادة أقواله أولى من أن يُعرف بشكلها . ومن هنا فان الإنكار لا يشير إلى الخلو من الانتظام في شكل الأقوال، بل إلى طبيعة المادة المعبر عنها . لكن

---

[١] دراسات المستشرقين: ٧٤.

* ينظر: دراسات المستشرقين...: ٨٧-١٢٩.

[2] D.S. Margeluth.The Origin of Arabic poetry. In Journal of The Royal Asiatic Society, Landon, Julay, 1925 p. 417- 449.

العبارة : "وما علمناه الشعر " تستلزم بالضرورة وجود نوع من الصنعة التي تميز الأسلوب الشعري، وينبغي تعلمها[١].

ثم يردف قوله : "ومع ذلك، فأن لهجة هذه العبارة الأخيرة تبدو يقيناً أنها تختلف عن لهجة سائر العبارات، ففي هذه استنكار لملكة الشعر : لقدُ ظن القرآن شعراً، وهذا الظن مرقوض، لكن- ها هنا- ربما يبدو بالأحرى أن الخلو من الصنعة الشعرية أمر ينفسح له وجه العذر، إنها لم تعد شيئاً يجده السامعون هناك حين لا ينبغي أن تكون هناك، بل شيء يتوقفون إليه، لكن غيابه أمر له ما يبرره".

ويرى "مرجيلوث" أنه ليس بالضرورة أن يفهم من الآية: ﴿ 🕮❐◉⬧ᘐ⇔✍⬧❷⬧◆ 🕮❐☼❋♑←☠⌧☒❼🗎→✍♏✍❐◆✂⑩🖮③◆♑☒⓿☺←❑♌◆ ﴾[٢] انهم يقولون الشعر حقيقة بل يعملون خيالهم في كل شيء من دون تمييز، ويفهم منها أنهم يتغزلون في كل وادٍ، واتفاقاً مع ذلك فان معظم القصائد كانت تبدأ بالغزل.

وينفي القرآن أو يبين بصورة قاطعة جهل النبي محمّ د (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) بالشعر[٣]. وهناك حديث يؤكد أن الأولى بباطن الإنسان أنُ يملأ باي شيء ما عدا الشعر. ومع ذلك فهناك شعر نسب للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)، أو أن يكون ناقداً للشعر او راوياً له.

ويعرض القول عن اكتشاف تلك الكمية الهائلة من النقوش التي ترجع الى ما قبل الإسلام وقد كتبت بعدة لهجات، لكن ليس فيها شيء من الشعر وهذه خاصة ما تكون بالنقوش على المقابر. واستبعاد أن تكون للعرب أية فكرة عن النظم أو القافية، على الرغم من تقدم حضارتهم في بعض النواحي "فإن كان القرآن يتحدث عن الشعر

---

[١] دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: ٨٧- ٨٩.

[٢] سورة الشعراء: الآية ٢٢٥.

[٣] الأغاني: ١٣-٦٤.

على أنه يحتاج إلى تعلم، فمن المعقول أن نفترض أنه يشير إلى تلك الصنعة التي تستلزم العلم بالأبجدية لأن القافية العربية تقوم في تكرار نفس المجموعة من الحروف الساكنة، والعلم بنظام نحوي ، لأن النظم يتوقف على الفارق بين المقاطع الطويلة والقصيرة، وارتباط بعض النهايات ببعض المعاني فيمكن اذن أن يكون ما يشهد عليه القرآن هو أنه قبل ظهوره كان بين العرب بعض الكهان المعروفين بأنهم شعراء، ومن المحتمل أن لغتهم كانت غامضة كما هي الحال في ألوان الوحي"[١].

ويطرح نظرة ابي تمام إلى الشعر على أنه يمثل أ مج اد العرب الاوائل ولمُ يحفظ منها إلا ما سُجل في القصائد، وأن القبيلة التي يظهر فيها ابرع الشعراء تسيطر على القبائل الأُ خَر إلى حدٍ ما . وتبعاً لذلك فان الشعراء ليسوا ك هاناً، بل يسجلون أحداثاً بما تملكفهم قرائحهم.

وهذه النظرة يجدها "مرجليوث" انها من اليسير أن تتوافق مع القرآن وموقفه العام من الشعر والشعراء، بل تنطبق على ديوان ابي تمام نفسه الذي جاء فيه تخليد لكثير من الاحداث زمن المعتصم وفتح عمورية، وكذلك ما جمعه من شذرات الشعر العربي في كتابه الحماسة اكثرها تشير إلى أحداث التأريخ . وعليه "لا نرى أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون" بل على العكس يفترض أنهم يسجلون ما فعلوه في الواقع أو ما شاهدوه يُفعل، ويبدو أن أي عربي من عهد إسماعيل فصاعداً يفعل شيئاً فانه يخلد ذكراه في قصيدة. لكن مجموعاً من القصائد يُخلد فيها التاريخ، إنما يؤلف أدباً لا يستحق أبداً أن يُوصَم بلغة الازدراء التي استخدمها القرآن، ووجود هذا الأدب تستبعده مواضع اخرى في القرآن استبعاداً تاماً"[٢].

---

[١] دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: ٩١.

[٢] دراسات المستشرقين.. ٩٢.

ويذكر أن الأثريين المسلمين الذين بدأوا عملهم حوالي نهاية العصر الأموي، أقرّوا بوجود قسم كبير من الأدب القديم في بلاد العرب قبل الاسلام، ويرى أنهم يدّعون تقديم قطع كبيرة منه الى الناس لكنهم صادفوا شكاً من بعض الناس، على حد ما رأى ما قام به الخليل الفراهيدي من وضع نظام العروض الذي قوبل بعدم التصديق من احد معاصريه وأن عمله من الوهم[١].

أمّا متى بدأ العرب نظم الشعر، فالبعض يرجعه إلى آدم وبعض آخر يدعي تقديم قصائد من عهد إسماعيل[٢]. اما عرب الجنوب فقد كتبوا نقوشهم بلغاتهم ولهجاتهم وأنهم كتبوا أشعارهم باللغة العربية التي كتب بها القرآن[٣].

ويرى "مرجليوث"[٤] في أمر تنازع الآراء بشأن المهلهل على أنه أول من قصّد القصائد الطوال وادخل فيها الغزل، انه لا صحة فيه إذ كان أول من انحرف عن جادة الصدق، فهناك روايات تذكر بأن امرأ القيس هو أول الشعراء ، وزمانه متأخر عن المهلهل قليلاً، فضلاً عن وجود روايات تبتدئ بالنسيب وهي أقدم من زمن المهلهل . وإلاّ فان كان المهلهل أول المقصدين للشعر فينبغي أن يكون هناك العديد من المقلّين، لاسيما وجود كم هائل من الأعمال الشعرية لشعراء ينتسبون إلى ذات وقت المهلهل في تقصيده القصائد الذي يفصل بين زمانه وبين زمان الهجرة.

ويرى "مرجليوث"[٥] في أمر حفظ ذلك الشعر وبقائه طيلة تلك المدة الطويلة ثم مجيء الإسلام ، فكيف يكون ذلك وقد ضاع معظم الشعر بعد اعتناق هؤلاء الإسلام وان منهم من قتل أو مات ولم يبق من الشعر إلا القليل على لسان الرواة إن

---

[١] ينظر: دراسات المستشرقين .../ ٩٣

[٢] ينظر: الأغاني: ١٣: ١٠٤.

[٣] ينظر: تاريخ الطبري: ١: ٩٠٦ .

[٤] دراسات المستشرقين...: ٩٣-٩٥.

[٥] درات المستشرقين .../ ٩٣- ٩٥.

كانت الرواية هي السبب في حفظ ذلك الشعر، ورد بقاء الشعر مروياً لاسيما بعد نزول القرآن الذي ازدرى من الشعراء ومن يتبعهم، فهذا يوضح الشيء الأكيد من أن الشعر الجاهلي قد نسي.

اما اذا كانت القصائد قد حفظت كتابة باللغة الحميرية فان الأمر لا يقترب من الصحة إقامة على ما جاء في القرآن الذي يشير إلى عدم معرفة العرب بالكتابة، او عندهم كتاب فيه يدرسون وقد عرض للآيات التي تشير إلى ذلك : " أم لكم كتاب فيه تدرسون [١]" او قوله: " أم عندهم الغيب فهم يكتبون [٢] ". فالوثنيون لم يؤتوا أي كتاب، وان الذين اوتوا الكتب هم اليهود والنصارى . والعرب لم يصدقوا في القرآن وشكك فيه قسم منهم، فكيف والحال مع الشعر في أن يكون موجوداً حقيقة ، وهل كتب فعلا، وكيف تم كتابة المعلقات وما شكل الكتابة لتلك الأبيات في معلقة حلزة والاشطر التي وردت فيها موزعة بين الصدر والعجز.

ويطرح مشكلة نحل الرواة وعدم مصداقيتهم كالذي عرف عن حماد الر اوية الذي عرف بـنحل الشعر وأنه أفسد الشعر إفساداً لا إصلاح معه [٣]. وكيف يؤخذ الشعر من هكذا را وية لاسيما روايته للمعلقات، ولو كان شخصاً غيره كان أدعى للتصديق . وكذلك الشأن بالنسبة للرواة الآخرين أمثال خلف الأحمر وكان سيء السمعة أيضاً، أو أبو عمرو بن العلاء فقد عرف بالنحل أيضاً . أمّا ما قيل عن شعراء هذيل ومعرفتهم بالشعر فلمر غير أكيد، أنهم لم يعرفوا اسم شاعر واحد من هؤلاء الشعراء الذين جمع شعرهم السّكّري[٤].

---

[١] القلم: ٣٧.

[٢] القلم: ٤٧.

[٣] ينظر: الأغاني: ١٩/٢٠.

[٤] ينظر: الأغاني: ١٩/٢٠.

ويستطرد "مرجليوث" في ذكر كل ما يكون أدعى للشكّ في وجود شعر جاهلي أو شعر مكتوبُ نقل عن طريق الكتابة الحميرية، وهذه اللغة ليست بلغة القرآن، فذلك يتعارض كلّ التعارض مع ما جاء به القرآن ونفي معرفة العرب بأمور الكتابة. ويشير إلى أمر الكتب التي كانت بحوزة الجمّاع الكبير أبي عمرو الشيباني أنها كانت ضئيلة جداً من حيث الكمّ ، ولكنه كان يدّعى أنها كلها صحيحة غير مُنتحلة، على الرغم من أن صاحب الاغاني ينقل عن أحد كتبه قصيدة طويلة يبدو أنها لشاعر جاهلي ويصرح بأنها كانت منتحلة في العصر الاسلامي[١].

وعلى ما يبدو– في نظر "مرجليوث" أن القرن الثالث الهجري لم يكن بأفضل مستوى من القرن الثاني الهجري إذ تُظهر الإشارات الى انتحال علماء اللغة للشعر أيضاً ومنهم المبرد الذي وردت عنه كثير من الشواهد الشعرية التي نحلها في مواضع معينة لمعاني اللغة او النحو على الرغم من أنه كان يتمتع بسمعة علمية بين معاصريه[٢]. ويشير الى ما ورد في الخبر عن مجنون بني عامر وسؤال الرواة قبيلته عن اسم هذا الشاعر فلم يكن هناك من يعرفه [٣]. بل هناك حكايات ترد أو وضعها المخترعون والمؤلفون لتلك الحكايات، من ذلك ما يُروى عن يزيد بن المفرغ الذي اخترع حكاية الملك الحميري تبع وما نسب إليه من قصائد [٤]. وكذلك ما جاء في سيرة ابن اسحق بهذا الصدد ايضا، أو ما عرف عن الشاعر نُصيب الذي بدأ الشعر بنظمه ونسبته الى أفراد من قبائل ضمرة بن بكر بن عبد مناة وخزاعة، فلما نالت الاعجاب استشعر نصيب بموهبته الشعرية[٥].

---

[١] ينظر: الأغاني: ٤/١٣.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين.../ (في الهامش)

[٣] ينظر: الأغاني : ١/١٧٠.

[٤] ينظر: الأغاني : ١١٢/١٧ .

[٥] ينظر: الأغاني : ١/ ١٢٦. ينظر: ١٠٢/١٣.

ويجد "مرجليوث" ليس ذلك فحسب من لدن الرواة او الشعراء او علماء اللغة، بل ان الخلفاء كان لهم دورهم في تشجيع الشعر المنحول وجزل العطاء لمن يستحسنون شعره أو صنيعه ذلك[١].

اما عن وجود رواة ثقاة في تابع "مرجليوث" القول إنّه على الرغم من وجود الاغراءات فكانوا ذوي نزعة نقدية ولم يصنعوا شعراً منتحلا . ولكن من أين تكو ن مصادرهم في ما عندهم من شعر صحيح حقاً إذ لابد من وجود نظائر لذلك الشعر القديم، والإسلام عندما ظهر قطع ما قبله وان الشعراء كانوا وثنيين، فكيف يُستشهد بشعر وثني بعيد عن روح الإسلام وما دعا إليه، لاسيما الإسلام قد حارب الوثنيين ولم يكن متسامحاً معهم، بل كان الموقف موقف العداوة البالغة الشدة، فيقول مرجليوث: "ونستطيع أن نتلمس الشعور بهذه الصعوبة في الحل الذي قيل أن حمّ اد الراوية قدّمه، وهو أن القصائد بقيت مدفونة طوال السنوات التي كانت فيها الحماسة للإسلام في أوجها، ثم استخرجت من دفائنها لما أن فتر ت هذه الحماسة بعض الفتور . والتفسير الآخر هو أن الشعراء لم يكونوا ألسنة أحوال الوثنية، لقد كانوا مسلمين في كل شيء إلا في كونهم لم يُسموا مسلمين "[٢] ثم يقول : " لو وجهنا انتباهنا إلى البينة الباطنة وجدنا في هذه القصائد ملامح تثير الدهشة على الأقل. إن شعراء غالبية الأمم لا يشكون أبداً في دياناتهم، والعرب المسجلون على النقوش كلّهم صُرحاء في هذا الموضوع، فمعظم النقوش تذكر واحداً أو أكثر من الآلهة ومن الأمور المتعلقة بعبادتهم "[٣] ويرى "مرجليوث" رأيه في دحض أن يكون العرب قبل الإسلام من النصارى وما كرّ سه المرزباني عن الشعراء الجا هليين ودياناتهم أن اهتمامه بهذا الشأن كان ضئيلاً، وإذا ما ذكر شيئاً عنهم فلا يذكر على أية ديانة

---

[١] ينظر: الأغاني: ١٢٩/١١، ٢/٣، ٤، ١٠.
[٢] دراسات المستشرقين ...: ١٠٩.
[٣] دراسات المستشرقين ...: ١١٠.

كان، على حين أن "النصارى اينما كانوا فمعهم كتبهم المقدسة، ولغتهم وفكرهم متأثران كثيراً بعبارات الاناجيل ورسائل الرسل "الحواريين" والمزامير، وشعرهم يتخذ- في الغالب- شكل الأناشيد، لكن في الشعر الجاهلي المزعوم هناك فقر شديد في الإشارات إلى كتب النصارى المقدسة والنظم المسيحية، حتى عند أولئك الشعراء الذين يفترض أنهم ازدهروا في بلاطات الأمراء والملوك النصارى . وصاحب الأغاني- وهو رجل خبير- يستنتج أن شاعراً معيناً ازدهر ح والي نهاية القرن الأول الهجري لابد أنه كان نصرانياً لأنه يقسم بالإنجيل والرهبان والايمان، ويقول- بحق- إن هذه أقسام نصرانية"[١].

ويجد "مرجليوث" أنّ القَسَمَ كان شائعاً في دواوين الشعراء وذكر الأمانة وذكر الإشارات عن الأنبياء وعن أخلاقهم . بل يرد في دواوين الش عراء الكثير من تعاليم الإسلام وما جاء في القرآن وكأنهم مسلمون حقاً ، أو أنهم عرفوا بالقرآن قبل نز وله وقبل ظهور الدين الإسلامي. ويستطرد بذكر أشعارٍ من هذا القبيل، ويرى برأي النقاد المسلمين في أن الاستعمال البين للقرآن في ما ذكره الشعراء مبالغ فيه كثيراً[٢].

ويبين أنّ ثمَّة خطّا ثانياً للبينة الباطنة وهو اللّغة "فكلّ هذه القصائد نظمت بلغة القرآن... فإن افترضنا أن فرض الإسلام على قبائل شبه الجزيرة العربية قد وحّد لغتهم لأنه زوّدهم بنموذج لسلامة اللغة لانزاع فيه وهو القرآن ... لكن من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتوكة قبل مجيء الاسلام بهذا العامل الموحد، لغة تختلف عن لغات النقوش وانتشرت في كلّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، فلا بد أنه كانت بين القبائل المختلفة أو على الأقل مجموعات القبائل- اختلافات واضحة في النحو والألفاظ، والمجموعة التي جمعها الأب شيخو تبدأ بشعراء جنوب ي الجزيرة العربية،

---

[١] دراسات المستشرقين ...: ١١٠-١١١.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١١١-١١٨.

ولغتها هي لغة القرآن، وفي داخل جنوبي الجزيرة العربية نفسها جاءت النقوش بلهجات عديدة، وبعضها قريب العهد بزمان النبي، وهي لا تفهم إلا بصعوبة، لأن العون الذي تقدمه العربية الكلاسيكية ضئيل بالنسبة إليها"[١].

اما ما رواه الرواة المسلمون من أشعار لأحد ملوك حمير وباللغة الحميرية أو بحروفها، فهم يقولون أنها- مع ذلك- بلغة القرآن[٢] فان كان هذا مع عرب الجنوب فكيف بعرب الشمال أو العرب في أرجاء الجزيرة العربية الأخرى وأماكنها المتباعدة، وقد يستقيم الأمر مع ما وجد من الوثائق النثرية فيمكن القول "إنّها تُرجمت أو حُولت تدريجياً من مرحلة للغة إلى مرحلة أُخرى على نحو ما يحدث من تغييرات في قواعد الاملاء في الكتب المطبوعة تدريجياً، أما في الشعر العربي حيث الصناعة أشد تعقيداً مما هي ستكون مستحيلة"[٣].

ثم يتابع القول فيرى أنه "ليس من المستحيل أن تكون لغة الحج از هي لغة البلاط في الحيرة، لكن يعوزنا الدليل على هذا خارج نطاق "القصائد القديمة ". إن فلوات شاسعة تفصل بين الاقليميين- الحجاز والحيرة- والمسلمون الذين يروون قصائد من كل أجزاء شبه الجزيرة العربية، منظومة بنفس اللهجة، يبدو أنهم يفعلون ذلك على غرار دأبهم على أن يجعلوا الكثيرين أو معظم هؤلاء الشعراء من المؤمنين بعبادة الله وحده لا شريك له"[٤].

ويدحض "مرجليوث" برأيه أن لا يكون لذلك التباعد الجغرافي أثره في عدم توحّد الشعر أو الشعراء في لغتهم وفي نظمهم، ويرى "أنهم يُسقطون على الأزمات

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١١٨-١١٩.
[٢] ينظر: الأغاني: ١٢٥/١١.
[٣] دراسات المستشرقين...: ١٢٠-١٢١.
[٤] دراسات المستشرقين...: ١٢١.

الماضية الظواهر التي يألفونها ويعرفونها"[١]. وذلك من قبيل ما رآه في صنيع عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته التي يذكر فيها أنه شرب الخمرة في بعلبك ودمشق وقاصرين، وأما الخمرة التي يتوق إليها فهي خمر الاندرين. ولكن على ما يبدو وما قيل أن موضعي الاندرين وقاصرين هما بجوار حلب، مما لاشك فيه أنه كانت لديه رحلة في تلك الأماكن ابان حياته التي امتدت إلى مائة وخمسين عاماً. ولكن المعرفة الأكيدة بهذه الأماكن أنها الأماكن التي امتدت بها الدولة الإسلامية، والأوْلى أن نذكر في عصرها لا أن يرجع الشاعر بها العهد إلى ٥٠٠ ميلادية[٢].

أما البينة الثالثة التي يقدّمها "مرجليوث" فهي بشأن "محتوى" القصائد. اذ كانت عادة ما تبدأ بالغزل- بالنسيب- والقرآن ذم الشعراء وجعلهم ومن تبعهم غاوين وما يقولونه غير مأخوذ به لانهم "يقولون مالا يفعلون". وإن أُخذ برأي النقاد في أنه ما يهم من تلك القصائد هو اللغة لانها جميعاً تكرر ا لمعاني نفسها. فإن كان هذا الشكل النمطي اسبق م ن القرآن، فلابد أن تكون هناك نماذج سابقة معترف بها، والبحث عنها أرجعها إلى عهد آدم. إن القصيدة الجاهلية لتبدي عن معرفة رائعة بتشريح الفرس أو الجمل او بذكر طبائع الحيوان، ومنها ما استهلها الشعراء بالاطلال والنسيب وذكر المحبوبة، والرحلة في الصحراء ووصف الناقة او الفرس، لكنّ أحداً من الشعراء، لم يكن انتاجه أساساً للتربية ومثالا يُحتدى على وفق ما جاء به القرآن والدعوة الى الإصلاح والأخلاق الفاضلة، فلم يكن أحد من هؤلاء يمثل القدوة الحسنة، فذمهم القرآن، مع إنكار أنهم ل ديهم كتب يدرسونها [٣]. أما القصائد المنسوبة إلى الشعراء الأوائل فهي في معظمها قصائد مناسبات خاصة بالشاعر ذاته، وهي تسجيل لتجارب لاتهم إلاّ أصحابها، أو بعض أهل قبائلهم.

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٢١.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٢١- ١٢٢.

[٣] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٢٢- ١٢٣.

ثم يضيف "مرجليوث" "وإذا كان ما يرويه الراوي شيئاً يتخذ شكل حوار ، أي سلسلة فيها يرد الشاعر على الشاعر، فان احتمال أن يكون الكلّ مخترعاً يصير احتمالاً قوياً جداً، لأننا لا نستطيع أن نعزو إلى الشعراء المتنافسين أنهم عملوا على المحافظة على أعمال بعضهم البعض، فيحتاج الأمر إلى تدخّ ل طرف ثالث، بينما إذا افترضنا أن الكلّ صدر عن عقلٍ واحد، فإنّ لدينا- على الأقل- شيئاً أمامنا بسيطاً وسهل المقارنة والتناظر"[١].

ويُطل "مرجليوث" تلك المنافسة أو المساجلة الشعرية بين النابغة الجعدي والعجاج والاخطل، ويرد من يقول إنّ النابغة هذا عمّر إلى الثمانين بعد المائة لأنها من الأخبار المخترعة عن هؤلاء الشعراء، فضلاً عما يورده صاحب الأغاني من الاخبار المماثلة عن شعراء عاشوا وعمّروا كثيراً[٢].

فان كان الشعر الجاهلي مشكوكا فيه لأسباب خارجية وباطنية على السواء، فهل كانت بداياته موغلة في القدم على الرغم من أن الآثار المأثورة عنه ترجع إلى زمان ما بعد ظهور الإسلام اي في العصر الاموي ولا يمكن زعزع ة صحة تلك الاشعار التي يعود زمانها إلى العصر الاموي[٣].

أما فيما يخص الموسيقى والغناء فإن القرآن لم يُشر أدنى إشارة إلى اللفظتين، وانما وردت لفظة "ترتيل" و "رتل" قد يكون معناها "يغنى" لانها وصفت الموجود الالهي أي القرآن.

وفي الأغاني يذكر تواريخ إدخال الموسيقى إلى العصر الأموي[٤]. فان كانت الموسيقى دخلت الى الشعر في العصر الاموي، فهل يُتصور أنّ الوزن الشعري كان

---

[١] دراسات المستشرقين ...: ١٢٣.
[٢] ينظر: الأغاني: ١٢٩/٤.
[٣] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ١٢٥.
[٤] ينظر: الأغاني: ٨٤/٣، ١٣/١٦.

موجوداً عند العرب بالشكل المنتظم الذي ورد فيه عنهم، والترتيب الأكثر اعتياداً- كما يرى مرجليوث- للنشوء هو الرقص فالموسيقى فالشعر . وإنّ تحرُّر الشعر من الموسيقى هو عملية تطول كثيراً، و أنّ بعض الاوزان الشعرية العربية تُوحي إمّا بالرقص أو بالموسيقى أو بكليهما"[١].

ثم يتبع القول إن وجود القرآن وهو يحتوي على مبادئ أولية للنثر المسجوع وللوزن، من شأنه أن يفسر نمو كلا الأمرين حينما أُدخلت نظرية ممارسة الموسيقى وإسقاط الفن على العصر الجاهلي، وذلك لن يكون أمراً غير مفهوم وقد أصبحت لغة القرآن لغة البلاط، وبقيام البلاط نشأت مهنة شاعر البلاط . وكانت هناك مدائح لرؤبةفي الرجز ، والرجز وسط بين الشعر والنثر، والرواية تؤكد أن والد هذا الشاعر كان أول من نظم أكثر من بيتين في هذا الوزن، وهو أقل البحور فنية، فكيف تكون هناك قصائد طويلة قد نُظمت في الأوزان الأصعب وفي عصر أقدم[٢].

موقف المستشرق "بروينلش"*

يرى أنه ليس من الصعوبة بمكان أن تتعدد روايات البيت الشعري لما تتمتع به اللغة العربية من ثراء لغوي منقطع النظير بالمرادفات أو شبه المرادفات، على الرغم من البناء الوزني المترابط في تركيب الشعر العربي، مادامت الرواية الشفوية مستمرة وقائمة . ولكن مع التقييد الكتابي ازداد الامر سوءاً بسبب عيوب الخط العربي، وظهور صناعة الورق وكتابة المؤلفات، لذا ظلت الرواية الشفوية قائمة الى وقت طويل، وكانت تعدّ المثل الاعلى لتحصيل العلوم الإسلامية.

---

[١] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ١٢٦-١٢٧.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين....: ١٢٧.

* A .BrourLish. Zur Frage der Echthit der altarabischen Poesie, in rientalistiche, Literatuzeitung, Nr.10, 1926 col 825- 833.

وازاء ما يريد "برويلش" معرفته عن الصحيح في رواية الشعر العربي الجاهلي ابتداءً من القرن الثالث الهجري كانت هناك المسألة عن الثقة في أقدم روايات القصائد ، ومنذ اللحظة التي تفوه بها الشاعر حتى الزمن الذي صارت فيه موضوعاً للمجاميع والمحاضرات التي وضعها كبار العلماء المسلمين . ويؤرّخ لزمن ذلك العصر بعقود قلائل سابقة لظهور الاسلام حوالي مائتي سنة تقريباً.

ويقدم "برويلش" لدراسة مرجليوث ذاتها- فيما نقدم - من هذا المبحث- ويناقش ما جاء فيها بحذافيره ا بشأن صحة الشعر العربي وتثبيت ما جاء فيها بالنقاط الآتية:

أ- العلاقة بين النقوش والاشعار.

ب- العلاقة بين القرآن وبين الاشعار.

ج- الثقة في الرواة.

د- مضمون الشعر الجاهلي.

ويذكر "برويلش" أنّه "على الرغم من الصعوبات في فهم النقوش العربية الجنوبية فمن الممكن- مع ذلك- أن نقرر بشيء من اليقين أنها لم تكن موزونة، على الأقل بحَ سَب البحور المألوفة من الشعر العربي . ولما كانت الشعوب التي صدرت عنها هذه النقوش كانت- من دون- شك ذات حضارة أسمى من حضارة البدو الذين صدرت عنهم هذه الأشعار، فان "مرجليوث" قد رأى من غير المعقول أن يكون للبدو غير المتحضّرين ما لم يكن لأولئك المتحضرين. لكن وبغضّ النظر عن اختلاف الزمن فإنه ليس من المستبعد ازدهار ملكة فنية لدى أقوام ذوي حياة بدائية"(١).

(١) دراسات المستشرقين...: ١٣٢.

ثم يقول : "وإذا كانت لغة الشعر العربي تختلف اختلافاً شديداً عن سائر اللهجات العربية الجنوبية، فإن هذا الا يدل إلا على أن هذه الدول لم تشارك في الثقافة المشتركة لشعر البدو، دون أن يتضمن هذا إمكان مشاركة بعض الأفراد في هذا الشعر"[١].

ويذكر أنه كان هناك كثير من العرب الجنوبيين يتكلمون لغتين ليس بسبب مجيء الإسلام الذي يصعب المبالغة في تأثيره في القبائل بو جه عام، مع انفصال العربية الجنوبية عن الشعر البدوي، إذا أدركنا أن اللغة العربية الجنوبية ليست من اللهجات العربية بل هي لغة سامية قائمة بذاتها. أما اللهجات العربية الشمالية فكان بوسعها أن تجتمع في لغة عالية.

ويستطرد القول "أما أن هذه اللغة العالية تستشف منه ا اللهجات، فيدل على هذا الأخبار الصريحة العديدة التي أوردها النحويون واللغويون المتأخرون . وستتجلى الفروق على نحو أظهر لو أننا رسمنا الشكل في كلِّ حالة بعلام ات صوتية وليس فقط بالأشكال الثلاثة: الفتحة، الضمة، الكسرة؛ كما يجري عامة . وإذا اقتصرنا فيما يتعلق باللهجات العربية القديمة على البدايات، فمن الممكن تفنيد الرأي الذي يزعم أن الشعر الجاهلي مكتوب بلهجة القرآن"[٢].

ويعرض موقف القرآن من الشعراء كما عرض هـ"مرجليوت" ونفي وجود كتب أو كتابة لدى العرب الوثنيين. ويتعرض لقضية الانتحال في الشعر متكئاً على أقوال "الفرت" و "مرجليوث" والإشارات إلى رواة نحلوا الشعر أمثال حماد الر اوية . وإلى الطعن الذي تعرض له الفراهيدي.

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٣٢.

[٢] دراسات المستشرقين...: ١٣٣.

ويذكر "بروينلش" أنّ صدق مختلف الروايات متفاوت، وربّما يستحق الكثير منهم ما نالوه من سمعة سيئة ، بيد أن الغالبية منهم تستحق الثقة، وربما أبحاث الأنساب العربية أن ترقى إلى مستوى التاريخ، لكنها مع ذلك ذات قيمة لا يمكن تقديرها فيما يتصل بمعرفة أحوال العرب في العصر القديم"[١].

ومما يستند إليه مرجليوث- كما يذكر برو ينلش- "في الشك في صدق جمّ اعي الشعر الجاهلي، الاختلاف في تحديد مُبتكِ ر أنواع الشعر المختلفة، والاختلافات التاريخية في نسبة بعض الأشعار إلى أشخاص في الماضي . لكن هذه دلائل على عدم كفاية منهجهم العلمي ومعلوماتهم، لا على عدم صدقهم، لأن الأمر- ها هنا- لا يتعلق بصدقهم في نقل المادة المجموعة بل بفروض مصنوعة بنفسها يمكن ملاحظتها وتمييزها بسهولة بسبب افتضاحها وثقلها"[٢].

ويشير "بروينلش" إلى "أن الشعر الجاهلي لا يفصح كثيراً عن ديانات العرب القدماء، وربمّا حصل ذلك بسبب استبعاد العلماء المسلمين ذلك الشعر الذي يدلل على الوثنية. لكن ينبغي عدم المبالغة في تلك التغييرات، لأن الشعر اء "البدو" كانوا في كلّ الأزمان قليلي التديُّن، ولذا لايمكن أن يوضعوا في مستوى شعوب النقوش العربية الجنوبية . فضلاً عن عدم تطابق شعر البدو مع الحياة الو اقعية للعرب القدماء ، ولما كانت اللغة والوزن مشتركين بين اللهجات وثابتين جوهرياً، فإن الموضوعات المطروقة مشتركة بين الشعراء وثابتة نسبياً"[٣].

وبالنسبة للأشعار التي جاء فيها ذكر الله أو تحتوى على تعابير قرآنية حرفية- ذكر مرجليوث قسماً منها- فان ما جاء به "الفرت" من المطالبة بالفحص

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٣٧.

[٢] دراسات المستشرقين...: ١٣٧.

[٣] دراسات المستشرقين...: ١٣٨.

عنها وعن السياق الواردة فيه وعن اسم الشاعر والتنبيه على كل حالة، كان يصدق فيه القول والأخذ برأيه.

لكن لا يتأتّى هذا الأمر لصعوبته بمكان أن نفُحص كل المواضع التي وردت فيها تلك التعابير، إذ أن مجرد الإشارة إلى وقائع جاهلية يرد ذكرها في القرآن- أيضا- لا تدل على اعتماد هذه الأشعار على القرآن وعلى أنها إسلامية، ومن الممكن "أن تكون جزءاً من أساطير الأولين الشائعة في الجاهلية والتي اخذ أهل مكة الكفار على النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) أدراجها في وحيه"[١].

لكن "بروكلمان" يرفض رأي "مرجليوث " حين يقول : "إنه على الرغم من "الاستمرار الظاهري" في الشعر المروي فان التجمع التقليدي للموضوعات ابتداءً من ذكر تجارب الغرام التي وقعت في مواضع عدي دة، وانتقالا إلى الرحلات والأسفار، وانتهاءً بالتفاخر بأعمال بطولية" ذات طابع لا أخلاقي في الغالب "يتضّح على نحو منطقي أبرز إذا افترض ذلك تم وفقاً للصورة الواردة في الآيات (٢٢٤- ٢٢٦) من سورة الشعراء. ففضلا عن أن ترتيب النماذج الثلاثة المزعومة لا يتفق مع ما ورد في القرآن، فاني أشعر بأنّه من غير المحتمل أنْ يكون المسلمون قد اتخذوا شكل الشعر الممنوع بصراحة...، وارتفعوا به إلى مرتبة عالية، أولى من الادعاء بأن القرآن في هذه المواضع أو تلك، إنما يجادل ضد شيء حاضر عتيد على نحو فاتر"[٢].

وأنّ السبب في عدم مهاجمة القرآن بشدة نماذج معروفة من الشعر، جرى النظم فيما بعد على منوالها، يعود إلى أنّ الزمن الذي نشأت فيه هذه النماذج كان بعيداً إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون أحدها موضوعاً لهجوم محدد، والصورة

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٤٠.

[٢] دراسات المستشرقين...: ١٤٠.

المجردة تجلت في كثير من الصور الجزئية، وأن تصوير نماذج للقصيدة لم يكن أمراً غريباً عن الشعراء"[١].

ثم يقول بروي رلش "ولو كانت كلّ الأشعار الجاهلية- وربمّا كل الأشعار السابقة على العصر الأموي- منحولة، و إنّها صُنع ت على الأبكر في العصر الأموي، فإنّه لن يكون مفهوماً لماذا فضّ ل علماء اللغة الذين ازدهروا في نفس العصر، باعتبار اللغة أد اة مساعدة لتفسير القرآن، نقول لماذا فضلوا أخذ شواهدهم من الشعر الجاهلي على أخذها من الشعر الأموي ، لأنّه لن تكون لغة الشعر الجاهلي أقرب إلى القرآن من لغة الشعر الأموي"[٢].

موقف "اجنتس جولد تسيهر"*

يعرض الرأي – في مقدمة ديوان الحطيئة- أن العرب الوثنيين الأوا ئل الذين أدركوا الإسلام كانوا قد امتلأوا بأفكار الوثنية ومُثلها وتشربوا نظرتها في العالم وفي الحياة، لذا " لم يتكيف الجيل الأول من العرب المسلمين مع دائرة الأفكار الجديدة التيُ فرضت عليهم إلا بصعوبة شديدة. لم يستسيغوا نوع التقوى الجديدة التي صارت لها السيادة، وعبثاً حاولوا القيام بهذا التنازل السلبي، وهو أن يُخلوا أشعارهم من تلك المعاني التي كانت تؤلف عصب الحياة في الشعر الوثني . ولهذا فإن الأحوال الجديدة تتجلّى من وجهة نظر الأفكار القديمة . وأدّى هذا إلى أن يقع الشعراء في نزاع مع المطالب الايجابية والسلبية للسلطة الدينية، أما حسان بن ثابت وكعب بن

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٤١.

[٢] دراسات المستشرقين...: ١٤١.

* ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٤٣-٢٣٧.

زهير– وربمّا هذا أو ذاك من الشعراء المعاصرين لهما، فيكونون استثناءً من الروح العامة التي تميز الإنتاج الشعري في عصر الانتقال هذا"[١].

ويرى "جولدتسير" بعد أن قدم شيئاً عن اسم الحطيئة ونسبه، وبعضاً من شعره الذي هجا به أمه وقبيلته بكر بن وائل، فيرى أن هناك صعوبات كثيرة تواجهه إذا حاول تحديد بداية الحطيئة في قول الشعر، أو تحديد وقت لشبابه المبكر. والحطيئة شاعر معروف في الجاهلية وذكر عنه ابن سلام في طبقاته أنه "عمّر دهراً في الجاهلية وبقي في الإسلام حيناً"[٢]، وظلّ إلى خلافة أبي بكر وعمر وعثمان . لكن إلى أي مدى عاش في الجاهلية، والى كم امتد به العمر؟ سؤال يطرحه "جولدتسيهر ". وحسب أخبار الفيلولوجيين والمؤرخين العرب فأنه قد عاش مائة وثلاثين سنة على الأقل[٣].

وثمَّة أمر يتعلق بالأخبار عن الحطيئة أنه كان راوية لزهير وابنه كعب [٤]، وزهير قد عمر طويلا إلى أيام ظهور الإسلام ، مع أن وصف الحطيئة براوية فالأخبار مختلفة، إذ هناك من يقول إنّ هدبة بن خشرم كان راوية للحطيئة والحطيئة يروي لكعب وكعب لآبيه، وكان جميل راوية هدبة، وكثير راوية جميل [٥]. وعليه سيكون الحطيئة راوية لكعب لا زهير.

والتاريخ المبكر للحطيئة يُرجعه الاخباريون إلى زمان النعمان بن المنذر برواية حادثة بوفود العرب على النعمان ليلبس حلته الثمينة "أكرم العرب" وكان يومها حارثة بن آوس معروفاً بالكرم، فسأل عنه النعمان إذ لم يكن حاضراً فطلب احضاره

---

[١] دراسات المستشرقين...: ١٤٣– ١٤٤.
[٢] الشعر والشعراء ١/ ١١٠– ١١١.
[٣] دراسات المستشرقين...: ١٤٩.
[٤] الأغاني: ٧٨/٧، ٤٧/١٥.
[٥] الأغاني: ٢٦٤/٢١.

وألبسه الحلة، ولحسد بعضهم أغروا الحطيئة بهجائه، لكنه امتنع لعلاقة تربطه مع آوس- مضمون قصيدته رقم ٥٣: كيف الهجاء وما تنفك صالحة ...- وهذه الحادثة أو الرواية تعطي زماناً مبكراً للحطيئة "فلا يُصدق أنّ رجلاً بقي حياً حتى بداية خلافة معاوية، كان شاعراً معروفاً في زمان النعمان بن المنذر، لكذلك فإن الربط بين الحطيئة وبين أوس بن حارثة ليس ممكناً بسبب آخر ، إذ لا يُعثر في قصائده على أي أثر لهذه العلاقة. والأمر الأكثر احتمالاً... أنّ القصيدة موجهة إلى زيد الخيل[١].

ويستطرد "جولدتسيهر" بذكر بعض قصائد من ديوان الحطيئة على أنها يمكن الاستناد إليها في تحديد المراحل الأولى للحطيئة في دنيا الشعر[٢].

ولكن هناك قصائد لا يرد فيها لا من حيث المضمون ولا من حيث الظروف الشخصية أية نقطة ارتكاز لتحديد زمانها وهل نظمت قبل الإسلام او بعده، إذ أن الحطيئة لم يتشبّع بروح الدين الجديد، وأنه دخل الإسلام مُضطرّاً، ولكنّ القصائد التي تشيع فيها روح الوثنية ليس دليلاً على أنها نظمت في الجاهلية، فضلاً عن أن مهجوّيه كان معظمهم من المخضرمين. وترد في ديوانه بعض التصورات الإسلامية التي تؤكّد مناسبتها ومضمونها أنها نُظمت في العهد الإسلامي، وكانت له قصيدة- رقم ١٣- قالها قبيل وفاته يذكر أنه "مسلم تخلى إلى وجه الإله حنيفُ..." فضلا عن ورود ألفاظ من روح الإسلام في قصائده- ١١، ١٣، ١٤، ٤٧- كما يثبتها جولدتسيهر[٣].

أما عن إسلام الحطيئة فلم يُذكر ضمن الوفود التي وفدت على النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) واسلم بعد وفاته. وهي حجة غير مقنعة لأنّ الحطيئة لم

---

[١] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٥١-١٥٢.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ١٥٣-١٥٨ في ذكر تلك القصائد التي عدها جولد تسيهر نقاط ارتكاز.

[٣] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٦٠.

يكن رفيع الشأن في قبيلته، وإنّما كان أكبر أعيان القبيلة هم الذين يؤلّفون الوفد . بل كان من المرتدين ويحرّضهم على محاربة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وبعد القضاء على الردة عاد الحطيئة إلى الإسلام[١]. وهو الزمن الذي كان فيه الشاعر كثير التجوال طمعاً في العطاء بين مختلف القبائل يمدح من يُجزل له العطاء- في قصائده: ٤٥، ٦٥، ٦٩ في بني كليب ويربوع-. ويهجو من يمنعه- في قصائده ٥٦ هجا فزارة، ٦٠ هجا بني شعل-[٢].

أما عن شاعرية الحطيئة فالنقاد يجدون تنوّع موهبته الشعرية ويُبرزون قوّته في المدح والهجاء والغزل، لكنّ في ديوانه كثيراً من الوصف ونماذج من المراثي، مع خلو ديوانه من ذكر الخمرة. والمديح والهجاء ممّا يتلاءم وخلق الحطيئة وطباعه والأغراض الدنيوية التي سعى إليها[٣].

والهجاء لم يكن شيئاً محبّباً لدى الخلفاء في عصر صدر الإسلام وكان يلقى مطاردة من السلطة الرسمية لأسباب دينية، والقبائل والأفراد الذين تنالهم ألسنة الشعراء كانوا يلقون حماية لدى الخلفاء وُعمالهم، ولا أدلّ على ذلك ما أقبل عليه الشاعر قيس بن عمرو النجاشي- إذ كان رقيق الإسلام- في شهر رمضان وكان يكره الاتقياء الذين يكثرون الصوم والصلاة ويحبّ حياة الفجور فهجا النجاشي بني العجلان بسبب ذلك. لكن تلك الدوافع لم تكن هي التي دفعته لهجائهم على طريقة الجاهلية .

لكن هناك أمر يُشار إليه في هذه المناسبة يعد ظاهرة مهمة جداً بالنسبة إلى تاريخ الأدب العربي يمكن استخلاصها من بيت شعر لابن مقبل هجا به النجاشي اليماني إذ يقول:

---

[١] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٦١- ١٦٤ للاستزادة بالاخبار عنه.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٦٥ ما أورده جولتسيهر في ذلك.

[٣] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٦٧- ١٦٩.

بني عامرٍ، ما تأمرون بشاعرٍ تخيَّرَ باباتِ الكتابِ هجائيا [١]

فالبيت يوحي بانتشار الهجاء كتابة لا شفلهاً أو رواية، أي أنه اختار هجا ءه من مختلف أنواع الكتابة وأضطرت قبيلة عامر إلى اللجوء إلى الخليفة عمر بن الخطاب في نهاية الأمر، الذي هدد النجاشي بقطع لسانه إن لم يقلع عن الهجاء.

أما في العصر الأموي فما عاد الهجاء جرماً أن يطلق الشعراء عنان ألسنتهم فيمن يهجون مثلما "كانت الحال في الأيام الحرة للجاهلية " على حد تعبير جولدتسيهر [٢]. ويستطرد بذكر ما كان في العصر الأموي وتحريض الخلفاء على التهاجي وظهور النق ائض وشعرائها الاخطل وجرير والفرزدق . ثم يتبع القول في العصر العباسي، لكن حدة الهجاء قد خفت ولم يعد المجال للتنافس بين القبائل بل كان في الغالب تنافساً شخصياً بين الشعراء لأمور تعود لأسباب دنيوية أ و سياسية من أجل الحظوة لدى السلطان[٣].

ثم يذكر ما كان بين الزبرقان بن بدر والحطيئة من خصومه ويطيل في سرد كلّ ما يتعلق بقضيتيهما في هذا الصدد. وما ذكر ذلك إلاّ ليبيّن "جولدتسيهر" أن كلّ ما كان من حكاية عن الحطيئة إلا لتبين جبنه من دون أخلاقه الأخرى، ولقد قال الحطيئة عن نفسه عندما وقع في أسر زيد زمن ابي بكر، إنه رجل يبتعد دائماً عن القتال والحرب، ولا يقصد إلاّ أن يكسب عيشه بالشعر، ويشكو قلة الأجواد، وأن سوق الشعر أصبحت كاسدة، وأنّ الحاجة وحدها هي التي أوقعته في صفوف عامر [٤].

---

[١] ديوان ابن مقبل: ٤١٠.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٧٣.

[٣] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٧٣- ١٧٩.

[٤] ينظر: دراسات المستشرقين...: ١٨٠- ١٩٧.

ويعود "جولدتسيهر" إلى مسألة المديح والتكسب بالشعر وما عرف عن شعراء مدحوا من أجل الحظ وة والتكسب ، وما كان من أمر زهير مع هرم بن سنان أو الأعمش حين يفخر بأن ممدوحه "يشترى الحق بمنفوس الثمن"، وأحد الذين مدحوا هشام بن عبد الملك ختم قصيدته بالبيت:

فأثبني ثواب مثلك مثلي تلقني للثواب غير جحود (١)

"فليس إذن أن يشذ الحطيئة عن هؤلاء جميعاً، وإن مدح فمن أج ل نيل العطاء وهو يشكو الحاجة إلى من يمدحهم ويثني عليهم اذا لم يبخلوا في عطائهم- القصيدة ٧٣ البيت ١٢-، بل نراه لا يخجل أن يصرّح- في القصيدة ٧ البيت ٣٦-، بأن ناقته:

تزورُ امرءاً يؤتي على الحمدِ ماله ومن يؤتِ أثمانَ المحامدِ يُحمَ دِ

لكن الحطيئة نفسه لا يخفي أن الهجاء وسيلة لكسب المال وانه لما يتفق تماماً مع مبادئه أن يشكو إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في القصيدة رقم ٨٥ التي يحتمل الا تكون صحيحة النسبة إليه- وقد حظر عليه بشدة أن يهجو أحداً. فيجد الهجاء صار ممنوعاً وأن الشحيح سيشعر بالأمان، وأن أسرته ستتعرض للفقر المدقع، فهو بفضل الهجاء كان "كاسب" أسرته- القصيدة ٤٧-. لذا ستموت أسرته من الجوع:

إذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي (٢)

---

(١) الأغاني: ١٠/ ١٠٩.

(٢) الأغاني: ٢/ ٥٥.

ويعرض "جولدتسيهر " أخيراً للسرقات الشعرية عند الحطيئة وهو أمر كان ذائعاً بين الشعراء أن يسطو ا على شعر غيرهم، ويستشه د بنماذج لأكثر من شاعر[١]. اما الحطيئة فبقدر ما حمل على الآخرين الذين استغلوا تعابيره، لكنه لم يفصح عما أخذه من مفاخر شعر حسا ن بن ثابت أو طرفة بن العبد . إذ يجد في أشعاره قدر كبير من الأشعار والتعبيرات المميزة فيها محاكاة لأسلافه من الشعراء[٢].

وأخيراً يعرض لأشهر اللغويين من القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين ممن أهتم بجمع أشعار الحطيئة، وأقدمهم حمّاد الراوية والمفضل الضبّي، وخالد ابن كلثوم وكان معاصراً. واكبر الفضل في رواية ديوان الحطيئة إنما هو لأبي عمرو الشيباني، وابن الاعرابي وبروايات أُخَر؛ السكري ، ومحمد بن حبيب [٣]. ومن رواة قصائد الحطيئة أبو حاتم السجستاني وكان من أكبر تلامذة الأصمعي.

آراء المستشرق "رينولد نيكلسون"

يتحدث في كتابه "تاريخ العرب الأدبي" عن الشعر المنحول وعن رواية الشعر وحفظه عن طريق الرواية الشفوية ، وأن الأشعار التي كانت تجدّ القبيلة أ و تهجو أعداءها، كانت تُشد بلستمرار. ولكن ما الذي يضمن أن هذه الأشعار التي عاشت مدة طويلة ورواها الرواة، لم يدخلها التغيير. إنّ نظام الرواة عند العرب يشبه الشعراء المتجولين– Rhapsodists– في اليونان ، وكان لكلّ شاعر راوية يحفظ عنه شعره ويرويه. وكانت هناك روابط– قرابة أو تلمذة– بين الشعراء والرواة . وقد أصبحت الرواية فيما بعد مهنة بعد أن كانت هواية، وأصبح الرواة يكوّنون طبقة مميزة مستقلة تحمل في ذاكرتها ذخيرة هائلة م ن الشعر القديم والثقافة المتنوعة . وكان الخلفاء

---

[١] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ٢٠٨– ٢١٧.

[٢] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ٢١٧– ٢١٨.

[٣] ينظر: دراسات المستشرقين ...: ٢١٨– ٢٢١.

يجزلون لهم العطاء والهبات ، واستمرت الرواية الشفوية حتى نهاية القرن الأول الهجري عصر التدوين ولم تتوقف، ولكن الكثير من الشعر قد فقُِ مع الزمن.

ويتعرض "نيكلسرون" بالحديث عن ظهور الإسلام وانشغال المسلمين عن الشعر القديم وعن الاهتمام به ، لأنّه في نظرهم كان يمثل الروح الوثنية ، فانصرفوا الى القرآن والحديث . ولكن لغة القرآن أصبحت غريبة بعد مدة وجيزة بالنسبة للمسلمين في العراق والشام وخراسان ومصر ، فكان على المسلمين تفسير القرآن والحاجة إلى اللغة والنحو. فنشط علماء البصرة والكوفة في هذا الصدد وكان من هلهم الشعر الجاهلي . فكانت بدايات جمع الشعر من الرواة وما يحصل في الأ مر من أخطاء بسبب الرواية الشفوية و بعُد الزمن ، ممّ ا أظهر النحل على الشعراء بسبب الحاجة اللغوية . وما صاحب ذلك من تدخل الرواة في ترتيب الأشعار واستبدال الألفاظ.

ويرى "نيكلسون" أنّ أثر الدين في حياة الجاهليين كان ضئيلاً وكذا في شعرهم. وهو على رأي مرجليوت بهذا الشأن- وإنْ جاءت إشارات في شعر بعض الشعراء- كما في شعر زهير- باحثين عن الحياة والمصير، كانوا يطلقونها حِكَماً في أشعارهم.

آراء المستشرق "بلاشير"

وكانت في ما تناوله في كتابه "تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي " بصدد رواية الشعر الجاهلي"* والأخبار المتعلّقة به والحديث عن الكتابة عند العرب وكتابة الشعر في العصر الاسلامي ، لكنّها الرواية الشفوية للشعر كانت مستمرة ، وكذلك قضية الشعر الموضوع- كما يسميه-.

وطرح "بلاشير" في كتابه ما سمّاه "قضية الشعر الموضوع " وهو في كتابه

* تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. ترجمة/ إبراهيم كيلاني ١٩٥٦م.

يؤرّخ للأدب العربي ويعرض هذه القضية حسب ما عرضه المستشرقون من أراء ومقالات، ومن حذا حذوهم- ما قدمناه في دراستنا عبر فصولها ومباحثها-.

ويرى "بلاشير" أنه على الرغم من أنّ طرائق الباحثين المحدثين في النقد ، أدقّ من طريقة علماء المسلمين في القرون الماضية ، ولكنّها لم تنجح ولم تكن مجدية، فكثيراً ما يتغلّب الشعور بالشك على القدرة على البرهنة عليه . ولكن لابدّ لأجل التمييز بين الصحيح والموضوع أن تكون دراسة المعنى متطلبة لدراسة المبنى كالاسلوب واللغة، ويعترف بالعجز عن التفريق-كما قال المفضل الضبي-بين ما قال حمّاد الراوية وما قاله خلف الأحمر.

ويعزو "بلاشير" خلوّ الشعر الجاهلي الذي وصل إلى عصر التدوين من أثر اللهجات إلى فعل الرواة الذين جرّدوا الشعر من كثير من الظواهر اللهجية - وان كانت هناك نصوص بقيت محافظةً على آثار لهجية في الصرف والترتيب والمفردات-.

ويقف "بلاشير" عند ضآلة أثر الدين في الشعر الجاهلي كما وقف عند ذلك المستشرقون الآخرون ، ويرى أنّ تنقية الشعر من المظهر الوثني لن يؤدِّي إلى اختفاء تامّ لمظاهر الوثنية والإشارات إليها.

ويرى في التراث الشعري أنّه يعبرّ عن روح الشعر الجاهلي أمّا أنّه قد بقي من دون مساس أو تغيير- لاسيما رواياته شفاهاً وما احدثه الرواة- فذلك أمر صعب وغير محدّد، وقد أجرى عليه علماء العراق أيّ الرواة أمثال حماد وخلف ، إصلاحات ذات صبغة جمالية.

أمّا فيما يخصّ عملية الانتحال ونحل الشعر فيرى "بلاشير"[1] أن الخلافات

---

[1] ينظر : تاريخ الادب العربي نيكلسون: ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٣.

حولها لا أهمية لها ، بقدر ما لا تحدث تلك النحول تغييرات في موضوع أو فكرة القصيدة. ويشير إلى أنّ النقاد القدامى قد أقرّوا بعجزهم عن كشف تلك الانتحالات ، فكيف يتسنّى أذن للمحدثين بعد مرور أكثر من ألف عام معرفة الصحيح والوقوف عنده.

آراء المستشرق "بروكلمان"

يعرض في الباب الأول من كتابه "تاريخ الأدب العربي" الذي عقده في الأدب العربي عدة فصول عن اللغة العربية وأولية الشعر العربي والقوالب التي نُظم أو قيل فيها، ثم ينتقل في فصل آخر للحديث عن طبيعة الشعر الجاهلي، وإلى الحديث عن رواية الشعر العربي في فصل آخر. أمّا الفصل السادس فعقده لطرح مصادر معرفة الشعر الجاهلي ولكلّ ما يتعلق به من دواوين شعرية ومجا ميع أدبية ومختارات شعرية. ثم ينتقل بالحديث عن مجاميع الشعراء ويختمه بالنثر العربي.

وفي حديثه عن اللغة العربية يقول: "وعلى الرغم من تشتت العرب السياسي- في الظاهر- ربطت بينهم قبل الإسلام وحدة معينة في أفكار الديانة والعادات وجعلت منهم أمة واحدة، وتؤيد لنا ذلك أيضاً لغة شعرهم، التي يُسهم فيها العباد من نصارى الحيرة بمثل نصيب رعاة الغنم الوثنيين من قبيلة هذيل في جبال الحجاز - جنوبي مكة- على حين يبدو أنّ أهل دمشق كانوا يُسهمون في هذه اللغة بنصيب الأخذ فحسب ، إذ كان أمراء غسّان يُحبوّن أشعار أهل نجد وقصائدهم الطّنانة في مديحهم"[١].

وينفي "بروكلمان"[٢] أن تكون لغة الشعر القديم من اختراع الرواة والأدباء على اساس كثرة من اللهجات الدارجة،ولم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ،

---

[١] تاريخ الادب العربي: بروكلمان: ١٠٢.

[٢] ينظر: تاريخ الأدب العربي: بركلمان: ١٠٢-١٠٣.

بل كانت لغة فنيّة فوق لغة اللهجات وان غذتها جميع اللهجات . فقد استوعبت لغة الشعر هذه كلّ خصا ئص الأصل اللغوي السامي أكمل استيعاب ،وإن لم تحتفظ في جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب، ولم تضاهها أيّة لغة أخرى من اللغات السامية من حيث المرونة والدّقة التي تتمتع بها في التعبير عن العلاقات التركيبية.

ويرى "بروكلمان" أن لثراء اللغة العربية في مفرداتها كان أن حُببت اللغة إلى علماء العربية ، على أنّ ذلك لا يُعدّ علامة على ثقافة عقلية رفيعة . فلغة الشعر والأدب تأخذ مادتها من جميع الرواة والتي تصبّ فيها اللغة الأم، "ولذا لم تقو العربية على اختراع ألفاظ تعبر عن المعنويات العامّة والمدارك الكلية ، بل اكتفت بالإكثار من الصفات والخصائص ، وكان ذلك أحسن زينة تزان بها قصائد العرب القدماء ، ولكن ليس دليلاً على وعي واسع الأفق ، بل وعي ضيق محصور لم ينهض بعد لتجريد المعاني الكلية واستخلاصها"[١].

وفي حديثه عن أولية الشعر العربي لا يجد من خبرٍ صحيح عن تلك الأولية، ولكن يمكن أن يُستخلص من الملا بسات المتشابهة مع شعوب بدائية أُ خر ، نتائج معينة لتطبيقها على العرب أيضاً[٢] وأشار الى ما جاء به "برويس"[٣] عن الأوليا ت الأولى للشعر كانت تتمثل في ذلك الغناء المصاحب للعمل وتلك الحركات الايقاعية المنتظمة لكن آثارها كانت قليلة ونادرة ، فالغناء لم يكن متّسقاً مع نغم العمل ، وإنما كان يسعف العمال بقوى سحرية، وإذاً فلابد أن يكون الغرض الذي قصد إليه الشعر في الأصل– مادام لم يكن مقصوداً منه المسامرة– هو الغرض من جميع فنّ القول عند البدائيين، بتشجيع العمل بطريقة سحرية. وهذا السحر– كما يقول بروكلمان– لم

---

[١] بروكلمان: ١٠٣.

[٢] ينظر: بروكلمان: ١٠٤.

[٣] ينظر: بروكلمان: ١٠٥.

تكن له آثار واضحة عند العرب إلاّ في شعر الهجاء كما وضح ذلك جولدتسيهر[١].

فشعر الهجاء كأنّ في يد الشاعر سحراً، يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري قبل ان ينحدر إلى السخرية والاستهزاء . لذا كان الشاعر قديماً إذا أراد اللعن يلبس زياً خاصاً يشبه زي الكاهن. ومثل ذلك يمكن قوله على الأغاني الصغيرة التي يردّدها البدائي في مواقف الحياة الكبرى من حالات السرور او الانفعال ، كانت غايتها أنْ تحُدِث آثاراً سحرية. وكذلك أغاني ترقيص الأطفال كالذي نقرؤه في تغنيّ ام الفضل بنت الحارث الهلالي وهي ترقّص ابنها عبد الله ابن عباس، قائلةً:

ثكلتُ نفسي وثكلتُ بكري إنْ لم يَسُدْ فهراً وغيرَ فهرِ

بالحَسَبِ العِدِّ بذلِ الوفرِ حتى يُوار ى في ضريح ال قبّر [٢]

وكذلك شعر الرثاء كانت غايته السحر ،فكان الغرض أن يطفئ غضب المقتول ونهيه ان يرجع الى الحياة فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين لكنه تلاشى فيما بعد أمام الشعور الإنساني بالحزن المحض[٣]. وكذلك الأمر بالنسبة لاغاني الصيد والحرب كان لها تأثير سحري حسب معتقدات الامم البدائية ، لكنها تلاشت أمام الفخر بالنجاح والغلبة، وإن كادت الحرب- في بعض الأحيان تستأثر بكل تفكير البدو، وكان لها دور كبير في أشعارهم، ولم يكن أمراً عارضاً أن سُمّيت أقدم مختارات الشعر العربي بالحماسة لأنها تظهر شجاعة العربي وثورته وفي تقدّمه

---

[١] ينظر: بروكلمان: ١٠٥.

[٢] الأمالي للقالي: ٢-١١٨.

[٣] ينظر: رودوكاناكيس، الخنساء ومراثيها:
1,N.Rhodkanakis,AL-Hansa, and ihre Trauerticder, SBWA 147 (1904)
وينظر أيضاً: جولدتيسهر.
J. Goldziher, Bemerkungen zu den arabischen trauergedichten WZKXVI,307-339.

للقتال. وإن كانت في أبواب كثيرة منها من صنع الرواة او المؤلف نفسه. فإنهّا تظهر روح هذا الفن الشعبي[١].

أما الحب فانه لا يمكن أن يكون من البواعث الأصلية للشعر [٢]، على ما وجد في نشيد الإنشاء عند العبرانيين القدامى وهو شعر ساذج الغريزة "اي مكشوف"، لكن هذا لم يكن في شعر العرب إلاّ القليل مما وجد لدى امرئ القيس ومغامراته العشرية إلى جانب أعمال البطولة ،وربما وجد ذلك في الأغاني الشعبية التي كان أنصار المدينة يتغنون بها في أعراسهم[٣].

ويقدم "بروكلمان " بالحديث عن قوالب الشعر العربي ، في أنّ أقدم القوالب الفنية العربية هو السّجع ، أي النثر المقفّى الخالي من الوزن ، على أنه يبدو – كما يذكر بروكلمان– أن النقوش اليمنية تدل على اتجاهات إلى استعمال القافية. والسجع قول الكهّان والعرّاقين ثم ترقّى إلى بحر الرجز المتألف من تكرار سببين ووتد، ليسهل على السمع وإبلاغ أثره في النفوس . أمّا الأوزان العروضية فإنّ بناءها تمّ بتأثير فنّ غنائي وإنْ كان بدائياً ، ويتضح في حداء الركبان . ومن الضلال– على حدّ قول بروكلمان– أن يقال إنّ عروض العرب نشأ على أساس شعر اليونان ، فالرجز لا يشبه العروض اليوناني الثلاثي التفعيلات إلاّ في الظاهر [٤]. أمّا البحور الطويلة الرئيسة فتغلب عند قدامى شعراء الحماسة وعند شعراء المعلّقات. ومن المؤكّد "أنّ هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة نعم نجد في بعض قصائد الشعراء الأقدميين أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن

---

(١) ينظر: بروكلمان: ١٠٨-١٠٩.

(٢) ينظر:
G. Neumann, Geschlechen. Kunst, Prolegomena, zu einer Physiologie Acsthetik, Leipzig, 1899.

(٣) ينظر: بروكلمان: ١٠٩.

(٤) ينظر: بروكلمان: ١١٠-١١١.

مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض"[١].

ثم ينتقل "بروكلمان" في فصل جديد إلى الحديث عن طبيعة الشعر الجاهلي الاولى في أنه كان يقوم على السحر والهجاء والتصورات الدينية، لكنها تلاشت تماماً عند العرب البدو فيما بعد وأبعدوا عن وعيهم كلّ ما يمكن أن يفلّ عزيمتهم في مقاومة الصحراء لضمان مقومات الحياة فيها ، فقصدوا إلى فنّ الشعر ووصفوا الحيوان والطبيعة وادخلوا فيه التشبيهات الجريئة لإشاعة نسمة الحياة فيه من قبيل حرصهم على الصدق والأصالة. لذلك كان شعر الفخر الذاتي أو القبلي اعتزازاً من الشاعر بمجد قبيلته، والذي أخذ يكتسب في بعض الأحيان- أهمية سياسية ،كما في معلّقتي الحارث وعمرو بن كلثوم مع ملك الحيرة عمرو بن هند[٢].

ولم يكتف الشاعر بالتوسع في أستخدام الثروة اللغوية و التشبيهات بانتقاء الصور التي لا تتبادر إلى الأذهان ، بل استعمل المؤثرات السطحية المعتمدة على الرنين والموسيقى اللفظية، إلى جانب التزامه بوحدة القافية. ثم كانت القصيدة وإطالة الأبيات وأصبح لها نظامها الدقيق من حيث استهلالها بالنسيب والحنين إلى الحبيبة عند رؤية الاطلال، ثم يمضي فيها الشاعر إلى وصف مسيرةٍ في المفاوز ووصف راحلته وذكر مشبهاتها من الحيوان الوحش وصفاً كاملاً ، ولا يتجه إلى التعبير عن حقيقة قصده إلاّ في آخر القصيدة. وهذا المنهج لابد أن يكون قد ترسّخ لدى الشعراء منذ زمن طويل- كما أشار امرؤ القيس إلى ابن خذام- وأن تلك القصائد الطوال- المعلّقات- لم تكن قد نُظمت دفعةً واحدة ، ولا يستبعد أن تكون قد نُظمت في حولٍ كامل. وبناءً عليه ترتّب تغيير الأبيات وألفاظها على مدى ذلك الحول ، فما يقوله الشاعر في وقت لا يثبت عليه في وقت آخر ، ثم يزيد عليه أو يبدّل بعض أبياته

---

[١] بروكلمان: ١١٢.

[٢] ينظر: بروكلمان: ١١٤-١١٦.

وإعادة قوله لمن لم يسمعه أولاً وهكذا . وقد يكون ذلك سبباً في أن كثيراً من الشعر القديم لم تبق منه إلاّ قطع متفرقة[١].

ويضيف القول على ذلك- أي بروكلمان- إنّه لم "نجد قصيدة ذات وحدة مستقلة وترتيب متكامل عند قدامى الشعراء إلاّ في أحوال نادرة جداً "[٢]. وذلك ما وجد عند الشاعر أعشى بني تميم.

---

[١] ينظر: بروكلمان: ١١٩-١٢٠.

[٢] بروكلمان: ١٢٠.

وكان للمستشرق "بروكلمان" حديث عن رواية الشعر العربي [١] شفاهاً وان كانت هناك كتابة قد عرفت عند العرب إلاّ أنها لم تقض على الرواية الشفوية بصورة كلية، وكان لكلّ شاعر راوية يروي عنه اشعاره شفاهاً دون الكتابة وعن هؤلاء الرواة تنتشر أشعار الشعراء في القبيلة.

ويشير إلى أن جمع الشعر لم يكن إلاّ في القرن الثاني الهجري أو في العصر الأموي، وأنّه لم يبلغ ذروته إلاّ في العصر العباسي . وإن كان الرواة قد غيّروا في الرواية الأصلية للشعر ونسبوا بعض الأشعار القديمة إلى شعراء من الجاهلية الأولى ووضعوا عليهم ونحلوا شعراً لتجميد بعض القبائل، وهو أمر لا يمكن إثباته.

ولكن على الرغم من كل العيوب ، يبدو أنّ القصد إلى التشويه والتحريف لم يكن إلا أمراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً جاهلية تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها ، وإن اسقطوا أبياتاً لشبها ت دينية ،فهي حالات قليلة لان الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس عرب الجاهلية.

آراء المستشرق "جورجيو ليفي دلافيدا"

إذ نجده يتحدّث عن قيمة المصادر التاريخية لعصر ما قبل الإسلام في مقالته "بلاد العرب قبل الإسلام "[٢]، قائلاً : "حين نحاول البحث عن العصور الوسيطة في بلاد العرب القديمة، وما نعرفه ليس بالكثير– إذا قِيس بما نجهل– والمجال متسع للفروض الظنية . وأياً كان، فإنّ أسباب فقدان القطع واليقين في دراستنا لتاريخ تلك الفترة أسباب مختلفة اختلافاً تامّاً . فإن مصادر تاريخ بلاد العرب في القرون السابقة لظهور الإسلام مباشرة مصادر أدبية– في أغلبها– وليست نقوشاً

---

[١] تاريخ الأدب العربي: ١٢٢–١٢٤.

[2] G. Levi Della Vida. Pre- Islamic Arabia, The Arab Heritage. New Jersy, 1944. P. 41-48.

كمصادر تاريخ بلاد العرب القديمة. وهي غزيرة وافرة- وربّما كانت أوفر مما ينبغي- فإنّنا نُعاني من كثرتها لا مِن قلّتها، ولكنّ قيمتها- للأسف- لا تعادل وفرة عددها، فإنَّ المعلومات التي تنقلها إلينا ليست مأخوذة من وثائق أولية، وهي تشبه- من بعض وجوهها- المصادر التي نعرفها عن التاريخ اليوناني والروماني واليهودي، وأكثر المصادر العربية أخبار جمعها علماء العصور الإسلامية ورتّبوها، والأدلّة المباشرة يُقّدمها لنا الشعر الذي وصل إلينا عن طريق ما قام به العلماء المسلمون من اختيار وشرح. أمّا الأدلّة التاريخية- وهي غير مباشرة، فلا يصحّ أنْ يُعتمد عليها من غير نقدٍ وتمحيص. ونتائج النقد والتمحيص تجيء- عادةً- متباينة، فإنّ جماعة من العلماء المعاصرين يشكّون شكّاً عميقاً أساسياً في الرواية العربية، ويذهبون إلى أن أكثرها موضوع زائف، وأنّه ا تُمثّل الاتجاه الذي نما في القرنين الثاني والثالث الهجريين، حينما نسي العرب ما كانوا يذكرونه عن التاريخ الجاهلي، فحاول اللغويون والأخباريون أنْ يملأوا الفجوات، وذلك بأن وضعوا وزيّفوا ما لم يجدوه في الوثائق الأصلية الحقيقية . ومن أجل ذلك يرون أنّ الأدب التاريخي العربي ليس أوثق من القصص التأريخية، وأن أكثر الشعر موضوع، فليس من المستطاع اتخاذها أساساً سليماً يُبنى عليه فهم صحيح لما كان يحدث في بلاد العرب في العصر الجاهلي".

آراء "فاجنر"*

ويرى "فاجنر" بهذا الصدد ان أحد أصعب المواقع التي حالت دون نظرة أدبية علمية للشعر العربي القديم – وما يزال – مشكلة رواية الشعر العربي القديم وصحته قبل الإسلام.

وسلسلة الرواة للشعر الجاهلي معروفة ومسلّم بها في نقل الشعر من جيل إلى آخر وكان هناك راوٍ لكل شاعر يأخذ عنه شعره وينقله لمن بعده حتى يصبح الراوي شاعراً هو أيضاً في بعض الأح يان، وأن أشهر سلسلة للرواة هي سلسلة آوس بن حجر– زهير– كعب بن زهير– الحطيئة– هدبة بن الخشرم– جميل "بثينة"– كثير "عزة" أي تنتهي إلى العصر الاموي.

ثم يأتي من بعد ذلك عملية جمع قصائد مشهورة من الشعر القديم وكان أشهرها المعلقات التي ظلت لها أهميتها في الميدان ا لأدبي والنقدي وان هذه المعلقات قد خرجت منتصرة من منافسات بين الشعراء ثم عُلقت على أستار الكعبة هو اختلاق متأخر للغاية(١).

وكان من أوائل من أثار نظر ية التشكيك في صحة الشعر الجاهلي هو المستشرق "نولدكه" وبعده "الفرت" اللذان كانا يعتقدان كلَّ الاعتقاد بأن قسماً من الشعر الجاهلي كان موضوعاً أو حتى منتحلاً وعند التحري فيه كانت الصحة أكثر ممّا صنعا وساد موقفهما هذا المعتدل حتى عزا "مرجليوث" سنة ١٩٢٥ الانتحال إلى كل شعر العرب قبل الإسلام(٢).

---

* ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٣٧ – ٦٠.

(1) A. F. A. L. Kister. The Seven Odes Some Notes on the compilation of the Muallaqat. Rso 44 (1969). 2736.

وينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٤٠.

(2) Marg. The Origins of Arabic Poetry. IRAS (1925). 417– 449.

وقد قدم طه حسين أفكار "مرجليوث" مقراً بها ونفى أن يكون هناك ش ع جاهلي[١]. إلا أن من المتخصصين من ردّ نظرية مرجليوث وطه حسين، فقد قدم "بروكلمان"[٢] أدلة تدحض رأيهما وكالآتي:

١- عدم وجود قصائد في نقوش العرب الجنوبيين الذين ارتقوا درجة في الثقافة أعلى من العرب البدو الشماليين. وإذا لم يكن لدى الجنوبيين شعر فيرد على أنه من الصعوبة أن تعكس النقوش النمطية شعراً موجوداً.

ومن جهة أخرى هناك ثمة شواهد على وجود شعر لدى الشعوب البدائية أيضاً.

٢- يجب أن تكون الرواية الشفهية- حسب رأيهما- قد حَرَّفت القصائد بحيث لم يبق منها شيء صحيح.

٣- في تصور "طه حسين" أن قصائد صحيحة لأمرئ القيس قد نظمت بالع ربية الجنوبية ونسبت إلى قبيلة كندة من عرب الجنوب، فهو أمر خاطئ اذ أنه خلط بين سلسلة النسب واللغة.

٤- إنّ لغة ذلك الشعر هي ذاتها لغة القرآن، لذا فإنها يجب أن تكون قد نظمت فيما بعد على غرار النموذج اللغوي القرآني الكريم[٣].

لكن ذلك لا يثبت فروقاً لهجية محددة ، ولان لغة الشعراء في الثروة اللغوية خاصة أكثر ثراءً من لغة القرآن.

٥- يمكن أن تعارض الحجة القائلة بأن القصائد العربية القديمة قد انتحلها المسلمون لعدم ذكر الدين الوثني فيها.

---

[١] في الأدب الجاهلي، ٦٤.

[٢] ينظر : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، د. عبد الرحمن بدوي : ١٣٠-١٤٢.

[٣] في الأدب الجاهلي: طه حسين، ٩٧.

٦- يصعب النظر إلى نمطية الشعر العربي القديم كما فعل مرجليوث وطه حسين على أنها دلي ل على وضع الشعر حيث كانت علامة مميزة لشعر ما بعد الاسلام، لكنها قد سهلت الانتحال.

٧- أدى نزوع فقهاء اللغة إلى شواهد على مفردات نادرة، أدى إلى أن يقدم الرواة الأعراب شواهد منتحلة لهؤلاء الفقهاء.

٨- اتهام لغويين مثل حماد الراوية وخلف الأحمر بالنحل على نطاق و اسع، ويعترض برونيلش على ذلك بقوله إن المرء لا يستطيع أن يسم القصائد التي رواها فقهاء اللغة بأنها منتحلة، بل أن يصف في الوقت ذاته مآخذ النحل التي قدمها فقهاء اللغة انفسهم بسبب غيرة محتملة بين الأقران بانها صحيحة.

٩- ثمة قصائد لم ينحلها فقهاء اللغة فقط. ووجدت أسباب لذلك:

أ- حمل التنازع بين القبائل إلى التغني- التفاخر- بمجد الأجداد بما كان من ابيات قديمة موضوعة.

ب- ظهور الوعي لدى غير العرب في بداية العصر العباسي ادى بهم إلى وضع قصائد على لسان العرب القدامى في مديح الفرس . وأختلق العرب بالمقابل أشعاراً تدل على قدم الحضارة العربية.

ج- ميل القُصّاص ورواة الاخبار التاريخية إلى التنويع في عرضهم بقصائد كالذي حصل مع السيرة النبوية.

ويعرض "فاجنر " لرأي مستشرق آخر هو "بلاشير " إذ له موقف غاية في السلبية من صحة الشعر ولكنه لم ينحرف كثيراً من الناحية النظرية عن نولدكه والفرت، ووقف من امكانية اعادة البناء موقفاً أشدّ تشككاً، وظلت كلمة "نحل" ، "انتحال" تتكرر في نقده لشعراء فرادى.

أما عن كتابة الشعر العربي القديم فيقول إنها لا تغني عن اتباع صحته حتى لو كانت الرواية بأكملها قد وردت كتابة، فإنه لا يخبر بشيء مطلقاً عن الصحة . اذ الانتحال يكون في الكتابة كما في الرواية على السواء.

وكان "كرنكو" مستشرق الماني آخر – قد جمع أخباراً عن المعرفة بالكتابة لدى الشعراء العرب القدامى حينما شبهوا الأطلال بحروف الكتابة، لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا يستطيعون قراءة تلك الحروف(١).

ويرى "فاجنر" ما عدّ ه"برويلش" أنه من حسن الحظ أن الشعر العربي لم يدون وأنه نقل شفاها حتى بعد ظهور صناعة الورق سنة ٨٥١ م، إذ أن الرواية الكتابية هي التي أدت إلى التحريف بالنصوص زيادة كبيرة.

"نظرية الشعر الشفاهية Oral Poetry Theorie" وتتوثق النظرية الشفاهية (الروائية) للشعر العربي عند "باري" منذ سنة ١٩٢٨م على لغة "هومر"، ثم نقلها تلميذه "لورد" إلى تقاليد ملحمية . ومفاد هذه النظرية أن المنشد لا يستظهر القصائد الملحمية التي تُلقى القاءً شفهياً بل يُعيد صياغتها من جديد في كل مرة تُلقى، أي كلُّ إنشاد هو صياغة جديدة أو نظم جديد، إذ يوجد توحد بين المؤلف والمنشد، ومن ثَمّ فليس للملحمة الشعرية مؤلف ولا نصّ أصلي، ويكون التأليف ارتجالياً لكلام طويل مترابط ممكن للمرتجل بما تهيّأ له من ثروة صياغية يمكن له استخدامها باستمرار . هذا وأن أسلوبه يتميز بتجنب جملٍ متجاوزة نهاية البيت، أي يبتعد عن ا لتضمين أو التدوير (٢).

---

(١) يستطرد لذكر ما صدر لناصر الدين الأسد في رسالته : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، القاهرة، ١٩٥٦. ودراسة فؤاد سزكين في كتابه: تاريخ التراث العربي . ومحاولتهما لإثبات صحة الشعر العربي القديم فيما افترضاه بكتابة الرواية المبكرة وأنه لم يأت شفاها.

(٢) ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي...، ٥١.

وطبقت هذه النظرية الشفاهية على آداب وأجناس أدبية شديدة التباين وكانت مدخلاً إلى الدراسات العربية فيما كان من مقالة "لمونرو" وكتاب "زويتلر"[١]. إذ يجد أن ما جاء في النظرية الشفاهية متوافراً في القصائد العربية القديمة من حيث طول القصائد وأنها ارتجالية وينقطع البيت عن البيت ما بعده لعدم التضمين[٢].

لكن الشروط التي جاءت في نظرية "ياري– لورد" لا تنطبق كلها على الشعر العربي، فالقصيدة العربية ليست شعراً ملحمياً، وطولها يقدر على أقصى تقدير مائة وعشرون بيتاً. إن غالبية القصائد لها مؤلفون أفراد.

إن القصائد العربية لم تكن في جميعها ارتجالية بل تطلبت تهذيباً طويلاً لصياغاتها. والحكاية في الملحمة ليست لها قدسيتها في القصيدة العربية[٣].

فمن البديهي أن "زويتلر" لم ينظر إلى كل تلك الامور، ومن ثَمّ فقد ضمّ كل الشروط التي اشترطها ياري– لورد في نظريتهما نشأة الشعر الشفهي، بل أصرّ على أن الشعر العربي القديم كان للإلقاء الشفهي وهي حقيقة واضحة في الشعر المروي شفاهاً ولا يختلف عليه اثنان [٤]. إن أهم حجة "لزويتلر" و "مونرو" هي الثراء الصياغي للشعر العربي القديم. وحسب رأي "ياري– لورد" تمكن الصياغات المنشدين المرتجلين من الإنشاد الارتجالي، ولكن– في الواقع– لا تكاد جلّ الصياغات التي كشف عنها في حد ذاتها تتحدد، فهي أحياناً ليست شائعة بدرجة كافية لذلك الأمر،

---

[١] ويقصد به المؤلف دراستين الأولى لمونرو وهي:
Momroe Oral Composition in pre- Islamic portray, HAL (1972).
التأليف الشفهي لشعر ما قبل الإسلام (الجاهلي). والثانية لزويتلر وهي:
Mzwettler: The Oral Traaition of classical Arabic poetry. Columbus, 1978.
التقليد الشفهي للشعر القديم.

[٢] ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٥٢.

[٣] ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٥٢.

[٤] ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٥٣.

وأحياناً مختصرة جداً لأنه ما تزال هناك صياغات غير قليلة باقية لوصف الشعر العربي بأنه ملتزم صياغياً[١].

ويخلص "فلجنر" من كل ما تقدم أنّ الشعر العربي لم يكن شفهياً، ولو كان كذلك حسب مفهوم "ياري- لورد" لكان "زويتلر ومونرو " على حق في أن مشكلة الصحة والبدائل وأوجه العزو المتناقضة إلى الشعراء قد حُلّت من تلقاء نفسها، اذ لم يعد يوجد لها عمق تاريخي . فربما كانت كل قصيدة في الشكل الحالي لدينا أداة تأليف "Compostion- preformance" لموضوع موجود منذ مدة طويلة من الزمن الذي دُونت فيه، وأن البدائل لا تمثل الا أوجه أداء مختلفة، إذ لا حاجة إلى محاولة إعادة النص الأصلي لأنه لا يوجد أصل في الشعر الشفهي[٢].

وما دامت صحة الشعر العربي لم تثبت إلى الآن بأي منهج كما يقول "فاجنر " بل يمكن نفيها والسؤال المطروح عن كيفية حال الصحة للشعر العربي ، فيمكن القول إنه من غير الممكن أن يوصف الشعر العربي القديم في مجمله – كما زعم مرجليوث وطه حسين – غير صحيح لأنه لابد من وجود النموذج المثال الذي على غراره كانت أعمال النحل والان تحال واحتاج فقاء اللغة والمفسرون إلى ذلك المثال أيضاً . فضلاً عن عدم وجود دراسات عربية تعطي أحكاماً مناسبة لصحة الشعر العربي وإنها في الغالب أحكام وفق الإحساس وبناء على ذلك جاءت متناقضة. وذلك ما تعرضت له معلقة امرئ القيس ولامية العرب للشنفرى[٣].

---

[١] ينظر: أسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٥٤.

[٢] ينظر: أُسس الشعر العربي الكلاسيكي: ٥٦.

[٣] ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، ط١، ج٤/٣٣٤- ٣٣٥.